مطبوعات
كتابي

ليو تولستوى -١-

قضية ضمير

الترجمة الكاملة لأول نص ينشر فى العالم للمخطوط الأصلى للرواية الخالدة

البعث



٢- قتلت زوجتى
(سوناتا إلى كرويتزر)
ترجمة: حلمى مراد

التراث العالمى للقارئ العصرى

ليو تولستوى

١- قضية ضمير
٢- لحن إلى كرويتزر

ترجمة : حلمى مراد

Un Cas de Conscience

KREUTZER'S SONATA

By : LEO TOLSTOI

الثمن :

لوحة الغلاف

واللوحات الداخلية

بريشة الفنان : **جمال قطب**

مطبوعات

كتابى

الترجمة العربية لشوامخ الكتب العالمية

صاحبها ورئيس تحريرها : حلمى مراد

الكتاب السادس والسبعون

التحرير : ٢٣ شارع عرابى (توفيق سابقا) ، شقة ١١١ ، القاهرة ـ تليفون ٤٦٤٧٥

الناشر : دار الشعب ـ ٩٢ شارع قصر العينى ، القاهرة ـ تليفون ٣١٨١٠

قضية ضمير

شخصيات الرواية

Dmitri Nekludoff	ديميترى نيكلودوف
Aline Karmaline	آلين كارمالين
Katherine Masslova	كاترين ماسلوڤا
(Katusha, Lubasha)	(كاتوشا ، لوباشا)
Ephimie Botshkova	ايفيمى بوتشكوفا
Simon Ipatoff	سيمون ايباتوف
Comte Shoenbek	كونت شوينبك
Matriona Pavlova	ماتريونا باڤلوڤا
Marie Ivanova	مارى ايڤانوڤا
Ivan Smielkoff	ايڤان سميلكوف

قضية ضمير

(المخطوط الأول لرواية "البعث")

للروائي الروسي
ليو تولستوي



Un Cas de Conscience
By : LEO TOLSTOI

ترجمة : عايدة صادق

مراجعة : محمد بدر الدين خليل

هـذه القصـة

عزيزى القارىء :

● **يقـول** « الكسندر بوشكين » ، وهو من أعظم شـعراء روسيا : « ان تتبع فكر رجل عظيم ، هو « علم » من أكثر العلوم جاذبية ! » .. ولعل هذا القول لا ينطبق على أثر من الآثار الفكرية ، كما ينطبق على أعمال **« ليو تولستوى »** ، الذى ظلت كتبه موضـع اهتمام الناشرين والنقاد ودارسى الأدب ، برغم مرور ستين عاما على وفاته .. ومرة أخرى ، لعل ذلك القول لا ينطبق على عمل من أعمال « تولستوى » الأدبية ، قدر انطباقه على روايته **« البعث »** بالذات .

ذلك لأن دراسة نصوص هذا العمل العظيم **« البعث »** ، نصا بعد نص ، تكشف لنا فى وضوح شديد تطور الفكر لدى ذلك الروائى الروسى ، الذى كان يخص هـذه القصة بالذات باهتمام عاطفى متميز ، نظـرا لأنه عاش فى شـبابه حوادث فاجعة تشبه ــ فى كثير من تفصيلاتها ــ تلك التى عاشـها « نيكلودوف » ، بطل روايتـه « البعث » ! **وقـد اعـترف « تولستوى » قبيل وفاته ، لصديقه الحميم « بيروكوف » ــ الذى كان يتولى نشر مؤلفاته ــ بأنه كان قد أغوى فى شبابه خادما صغيرة السن ، ثم تخلى عنها هو وأهله ، فلم تلبث أن ماتت تحت وطأة اليأس والبؤس !**

تلك الذكرى الأليمة ــ التى لم يكن يعرف سرها فى البداية

سوى زوجته « صوفى اندريفنا » ـ ظلت تلاحقه ، حتى دفعت به الى أن يحاول كتابة قصة تتناول هذا الموضوع ، على ضوء ما انطبع فى نفسه . وفى يوم ١٥ ديسمبر من عام ١٨٨٩ ، كتب فى مذكراته هذه العبارة : « بدأت أمس كتابة قصة طويلة ، واننى لأجد فى تدوين أحداثها متعة كبيرة » .. ولكنه لم يكد ينتهى من الفصل الأول منها ، حتى توقف عن المضى فيها ، وأهملها تماما !

ثم صادف ـ بعد خمس سنوات ـ أنه كان يبحث فى أحد أدراج مكتبه ، ففوجىء بالأوراق القليلة التى كان قد كتبها من تلك القصة . وما ان قرأها ، حتى استيقظ اهتمامه بها ، وانهمك من جديد ـ وفى حماس شديد ـ فى انجازها . وهكذا ولدت هذه القصة القوية التى تستمد جذورها من واقع حياته وذكريات شبابه ، وقد جعل عنوانها « **قضية ضمير** » !

ولقد أتم « تولستوى » كتابة القصة ، فى أول يوليو عام ١٨٩٥ .. ولكنه بدلا من أن يدفع بها الى المطبعة ، ألقى بها جانبا ، ولم يعد يفكر فى نشر هذا الأثر العظيم . **واذ أخذ اهتمامه يتزايد بالمسائل الاجتماعية والدينية ، كان لا يفتأ يعود الى هذه القصة ، فيجرى فيها تعديلا بعد تعديل ، وتبديلا بعد تبديل ، مغيرا من أفكاره وآرائه ، ومطورا فى نظرياته الاجتماعية والدينية ، دون افتئات على الفن القصصى ، حتى استقر على شكل نهائى لها ، بعد أربع**

سنوات ، كتبها خلالهـا تسع مرات ! وفى كل مرة كان يبدل ويغير فى سياقها وأحداثها .. حتى نشرها على العالم فى صورتها النهائية ، وسماها ((البعث)) !

وعندما نشرت « البعث » ، فى سنة ١٩٠٠ ، فى مجلة « نيفا » Niva – التى كانت تصدر فى (سانت بطرسبورج) – لم تكن تحمل شيئا من ملامح القصة الأولى **((قضية ضمير))** .. كان كل شىء قد تغير فيها : البداية ، والنهاية ، والاطار العام ، والتحليل النفسى للأبطال .. بل وأسماء أغلب شخصياتها .

وظل النص الأول لقصة « قضية ضمير » ، مطويا فى أدراج النسيان ، بينما راح النص الأخير – الذى حمل اسم « البعث » – وتوالت منه الطبعات ، وترجم الى معظم اللغات الحية ، وأخرج فى السينما ..

وفى سنة ١٩٣٤ ، قدر لقصة « قضية ضمير » أن تظهر .. فقد نشرها « متحف تولستوى » فى سلسلة **((نصوص لم تنشر))** ، ضمن المطبوعات الأدبية التى تصدرها أكاديمية الدولة فى الاتحاد السوفييتى ، وقد صدرتها الأكاديمية بهذه العبارة : **((النص الأول لقصة البعث))** .

وقد تبين أن المصادفة وحدها هى التى قدرت لهذا العمل الأدبى أن يبقى ، وأن يظهر .. اذ عثر على النص الخطى له – فى الثلاثينات من هذا القرن – فى قبو احدى البنايات العديدة ، فى ضيعة تولستوى (ياسنايا بوليانا) Iasnaia Poliana ، التى آلت ملكيتها الى « متحف تولستوى » ،

(وهو الهيئة التى تتولى التنقيب المستمر ، فى جميع المناطق التى عاش فيها « تولستوى » ، عن آثار وأوراق هذا الكاتب الخالد الذكر) .. وقد استطاعت هـذه الهيئة أن تسجل نتائج أدبية عظيمة القيمة ،، فى تنقيبها ، منها العثور على هذا النص الذى لم يترجم من قبل الى أية لغة حية ـ أو غير حية ـ سوى الفرنسية ..

وقد شاءت المصادفة وحدها ـ أيضـا ـ أن أعثر على الترجمة الفرنسية لهذا النص ، فى نسخة نادرة من الطبعة الأولى والوحيدة لهذه الترجمة .. وهى الطبعة التى نفدت فور صدورها ، ولم يعد طبعها ثانية حتى اليوم ـ لسبب لا أعلمه ـ كما أنها لم تترجم الى الانجليزية ، فيما أعلم ، لسبب اجهله أيضا .. ولعل هذا السبب أن يكون قيدا من قيـود الاحتفاظ لناشر « البعث » بحقوق الانفراد بنشر الرواية فى صورتهـا الأخيرة المتطـورة ، وان كنت أرى أن الصـورة الأولى التلقائية للرواية ـ وهى التى تقرأ **ترجمتها الكاملة** فى الصفحات التالية ـ قد تكون أقرب الى الصدق والواقع من الصورة النهائية لـ « البعث » .

والآن ، أتركك أيها القارىء لتستمتع بقراءة « قضـية ضمير » .. ولن أيأس من مداعبـة الأمل فى أن يتـاح لى ، يوما ما ، أن أقدم لك ـ أيضا ـ الترجمة الكاملة للرواية الشقيقة « البعث » .. ويومئـذ تستطيع المقـارنة بينهما بنفسك .

والله ولى التوفيق .

حلمى مراد

الفصل الأول

يوم مثير

● **تمتم** « ديميترى نيكلودوف » Dmitri Nekludoff في سره : « يا الهى ! ما أكثر الخطابات الواردة اليوم ! » .. كان قد جلس يرتب البريد والأوراق التى تنتظره ، على مائدة يكسوها غطاء أبيض ، وهو يتنـاول ــ الى جانب ذلك ــ افطاره من القهوة الممزوجة باللبن ، وبعض الفطائر .

وقالت له مربيته العجوز : « لقد استيقظت اليوم متأخرا يا سيدى ، على غير عادتك ، وهنالك من ينتظرك منذ فترة طويلة » .. فرد عليهـا « نيكلودوف » ، وهو يفحص البريد على عجل : « سأحضر حالا يا مربيتى العزيزة .. حالا ! »

.. ثم سألها بعـد برهة ، وهو يجـذب خطابا من بين الأوراق ، كان خطه الجميل ــ على صفحة من الورق الرمادى السميك ــ معروفا لديه : « أهو خادم آل كارمالين ، الذى ينتظرنى ؟ » .. ثم أردف ، وقد حدثته نفسه بأن الخطاب الذى خصه بعنايته يحتوى على ما يسره : « ولماذا ينتظرنى ؟ » .. فأجابت العجوز ، وهى تهز رأسها وتغمز بعينها : « انه ينتظر ردك بالطبع . وقد قدمت له الشاى ! »

كان الخطاب من « آلين كارمالين » Aline Karmaline التى ربطت بينها وبين « ديميترى نيكلودوف » ، منذ أمد ، صـداقة حميمة وثيقـة ، من النوع الذى يمكن أن يتحول ــ بكلمة ، أو بايماءة ــ الى خطبة ، وزواج !

وكانت الصداقة بين عائلتى « نيكلودوف » و « كارمالين » ترجع الى عهد بعيد ، عندما كانت مدام « كارمالين » ومدام « نيكلودوف » تعيشان فى تفـاهم وود ، وتكن كل منهما للأخرى تقديرا كبيرا . وكان الطفلان يلعبان معا ــ دون

ما كلفة ، وبمحض رغبتهما - كما يفعل أى صبى فى الرابعة عشرة وأية فتاة فى الثامنة من عمرها .

ثم قدر للعائلتين ألا تتزاورا الا نادرا ، اذ سكنتا - ردحا من الزمن - مدينتين مختلفتين ، فلم تعودا الى التلاقى من جديد ، والى تجديد علاقاتهما القديمة ، الا فى سنة (١٨٨٤) ، حين آثرت مدام « نيكلودوف » أن تقيم - فى العام الأخير من عمرها - مع ابنها فى العاصمة ، وكان من عادة آل كارمالين ألا يغادروا موسكو بتاتا ، وهكذا اجتمع شمل الأسرتين . ثم شاءت الظروف أن يزداد « ديميترى » تقربا من « آلين » خلال مرض أمه ، ثم بعد موتها بوجه خاص .. فتوثقت الروابط بين الشاب والفتاة ، الى حد يبشر بالزواج !

ولكم كانت مدام « نيكلودوف » تتمنى - من صميم قلبها - هذا الزواج .. وكذلك كانت مدام « كارمالين » . بيد أن رغبة « آلين » فى تحقيق تلك الأمنية كانت أقوى ، فكانت لا تفتأ تردد أنها لم تحب فى حياتها شخصا كما أحبت « ديميترى نيكلودوف » ، وان الشاب كان حريا بأن يطلب يدها منذ وقت طويل ، لولا ما عاقه من تردد !

ولقد قررت « آلين » فى البداية ، بينها وبين نفسها ، أن تروض « ديميترى » ، (أو أن تهذب من طباعه ، على حد تعبيرها) . كانت تريد اصلاحه ، ولم يكن هذا بمعنى أن تخلصه من بعض العيوب - اذ أنها كانت تؤمن بأنه انسان فاضل ، بل انسان مثالى - وانما كانت تبغى أن تخلصه من بعض تصرفاته الغريبة ، ونزواته ، وشطحاته !.. فسعت الى محو ما يتنافى مع ظرفه وتناسق طباعه ، دون أن ينال ذلك من معدنه الأصيل الطيب . واندفعت « آلين » فى هذه المحاولة بكثير من الرضا والتحمس ، مما أوقعها فى حبه دون أن تدرى .. فما لبثت أن وجدت قلبها يخفق بحب « ديميترى » ، وهى التى رفضت - من قبل - أربعة رجال

تقدموا لخطبتها ، كان كل منهم أفضل من الآخر .. بل انها كانت قد قررت ألا تتزوج قط ، لتهب نفسـها للفن .. للموسيقى التى أحبتها الحب كلـه ، والتى أوتيت مواهب واستعدادا لها لا يبـارى .. واذا بها تتـدله فى هوى « نيكلودوف » ، الى درجة أصبحت تخشى معها ألا تقوى على أن تتعمق فى حبه بدرجة كافية .. كانت تشعر ــ كلما ازدادت حبا ــ أن فى الحب متسعا لمزيد !

ولقد انقضت ثلاثة أشهر على وفاة مدام « نيكلودوف » . وبرغم قسوة المصاب ، فان الآلام التى خلفها لم تكن كافيـة لتفسير الصمت الغريب الذى طرأ على « ديميترى » . اذ أنه لم ينبس بكلمة ، مع أن تقديره للعلاقات التى ربطت بينه وبين الفتاة لم يكن منكورا .. مما جعلها تعانى كثيرا من الضيق !

وما كان امساك « ديميترى » عن البوح بمكنون قلبه ، الا لأنه كان نهبا لعاطفتين متناقضتين : **أولاهما أنه لم يكن قد أحب « آلين » بدرجة تكفى لأن يقرر التضحية بحريته !.. وثانيتهما أنه كان يضع فى حسابه أن سنه قد بلغت الرابعة والثلاثين ، وأن ماضيه لم يكن فوق كل شائبة ، وأنه لم يكن قد أثبت بعد ما لديه من امكانيات وقدرات . وبوجه عام ، لم يكن قد مارس فى حياته عملا على الاطلاق !.. وكان ــ اذ يدرك ذلك كله ــ يجد نفسه غير جدير « بآلين » الطاهرة ، الموهوبة ، الظريفة !..** لذلك لم يجرؤ على التقـدم لطلب يدها ، لأنه ظل مترددا فى قرارة نفسـه ، ولأنه خشى أن يقابل بالرفض .

.. وأخـيرا قال لمربيته ، وهو يلقى نظرة عاجـلة على الرسالة : « سأذهب لأرى الزائر يا مربيتى العزيزة ! » .. وراح يقرأ ــ بين سطور الرسالة ــ هذه الكلمات :

« وفقـا لوعـدى اياك بأن أعينك على تذكر مواعيـدك ،

أذكرك بأن عليك اليوم - الثانى والعشرين من ابريل - أن تحضر جلسة المحكمة . ومن ثم فلن تتمكن من مصاحبتنا - مع السيد « كولوزوف » - الى معرض « تريتجاكوف » (كما وعدتنى بالأمس ، بتسرعك المعهود) ، **الا اذا كنت على استعداد لدفع ثلاثمائة روبل غرامة** (١) ، جزاء تخلفك عن الذهاب الى المحكمة فى الموعد المحدد ، وقد تذكرت ذلك بالأمس ، بعد أن تركتنا مباشرة » .

وصاح نيكلودوف : « آه ! هذا صحيح !.. لقد نسيت هذا الأمر تماما » . ثم أعاد قراءة الخطاب ، والابتسامة تتراقص على شفتيه ، وأردف : « يجب أن أذهب الى المحكمة .. كيف نسيت ذلك ؟ »

ونهض عن المائدة ، واقترب من مكتبه ، فأخرج من درجه كومة غير منسقة من الأوراق ، والصور ، والسجائر ، وغير ذلك .. وبعد بحث ، عثر على خطاب رسمى يدعوه - بوصفه عضوا فى هيئة المحلفين - لحضور جلسة الثانى والعشرين من أبريل . ونظر « ديميترى » الى ساعة الحائط البرونزية ، فوجدها تشير الى التاسعة والربع ، وكان عليه أن يكون فى المحكمة ، فى العاشرة على الأكثر ، كما ورد فى الخطاب الرسمى .

ورجع ديميترى الى المائدة ، حيث ظل الفطور فى انتظاره ، فملأ نصف قدح بالقهوة ، وأضاف اليها بعض اللبن ، ثم قضم قطعة من الفطير ، وهو يقرأ خطابا آخر صادرا من الخارج . كان مرسلا من دير « آثوس » ، لطلب اعانة مالية ، فألقى به فى غيظ .. ثم تناول خطابا ثالثا ، يحمل خاتم بريد مدينة (ريازان) فاذا به من تاجر بهذه المدينة ، يطلب اليه تجديد عقد ايجار ضيعة (راتينبورج) ، التى كان هذا التاجر يستغلها طيلة السنوات الخمس الأخيرة .

---

(١) كتبت هذه العبارة - فى الأصل - باللغة الفرنسية .

● **كان** « نيكلودوف » يقيم فى موسـكو ، فى مسكن كبير فاخر ، مع مربيته العجوز ، واثنين من الخـدم ـ أحدهمـا طباخ ، والآخر وصيف (خادم خاص) ـ كما كان شأنه قبل وفاة والدته ، وان لم تكن حياة الفراغ والخمول فى موسكو تتفق مع ميوله على الاطلاق . ولقد أقعده الحزن على أمه ـ فى بداية الأمر ـ عن الشروع فى أى عمل ، ولكنـه لم يلبث أن اعتـاد شيئا فشيئا ، ودون أن يفطن ، هذا النـوع من الحياة ، فانساق اليه دون مبالاة .

كذلك كانت تستبقيه فى موسـكو تلك الروابط القـوية التى توطدت بينه وبين آل « كارمالين » . **ولقـد بذل آل « كارمالين » ـ فى بادىء الأمر ـ كل جهودهم لمواساته ، فكان يهز مشاعره أن يراهم يبـالغون فى تقدير حزنه . ولم يكن بوسـعه أن يرفض ما كانوا يغمرونه به من عواطف .. وما لبثت مواساتهم أن زادته قربا منهم ـ ومن « آلين » بوجه خاص ـ حتى بات يشعر بأنه مرتبط بها ، عاجز عن وضع نهاية لتلك الصداقة الغالية ، وعن مبارحة العاصمة !**

ولقد كان يظن ـ فيما مضى ـ أن والدته وحدها هى التى كانت تضطره الى هذا اللون من الحياة ، وأنه كفيل بأن يتعرض لتغيير جوهرى بعد وفاتها . ومع ذلك ، فها قد انقضت ثلاثة أشهر على موت مدام « نيكلودوف » ، و « ديميترى » سادر فى نفس اللون من الحياة !

وكان لزاما عليه أن يعترف ـ برغم ما يسببه له ذلك من ألم ـ بأن وجود والدته التى كان يحبها ويحنو عليهـا ، قد عاقه عن تحقيق ما ظل سنوات يصبو اليه من مشروعات . اذ كانت لمدام « نيكلودوف » فكرة محددة عن الوضع الذى تمنته له : وهو أن يقضى كل وقته ـ طيلة حيـاته ـ وسط هذا المجتمع الروسى ، الخاص ، المغلق ، الذى شهد مولده ، والذى كان كل فرد فيه يعرف الآخر معرفة تامة .. **وبمعنى**

آخر ، كان عليه أن يتلقى دخلا قدره عشرة آلاف من الروبلات ، وأن يشغل منصبا هاما ، وأن يصبح - فوق كل شيء - شخصية ممتازة !.. وبمعنى ثالث ، كان عليه أن يمتاز عن المألوف : فى عاداته ، وميوله ، وأناقة ثيابه ، وأخلاقه ، دون أن يختلف فى شيء عن أبناء طبقته ، من حيث المعتقدات ، والسلوك - بل ومن حيث لهوه ومرحه أيضا ! - وأهم من ذلك كله ، أن يتزوج بفتاة من طبقته ، وأن تكون له أسرة كفء لتلك التى انحدر من صلبها !

بيد أن « ديميترى » - شخصيا - كان يصبو الى شيء يختلف تماما عن هذا . كان منذ سنوات صباه ، وطوال فترة دراسته بالجامعة ، يذم - بدون هوادة - ذلك الطابع الخاص لما يسمونه « المجتمع الراقى » ، ويعارض بكل ارادته أمنيات والدته وأهدافها ، فأخذ يخالط أفرادا كانت مدام « نيكلودوف » تعجز عن حفظ أسمائهم ، وكانوا - اذا جلسوا فى حجرة الاستقبال - يغوصون فى مقاعدهم دون لياقة .. وفى حجرة المائدة ، كانوا يجلسون اما متباعدين جدا ، أو متقاربين جدا ، ويتكئون على المائدة بسواعدهم .. وقصارى القول أنهم كانوا غريبى السلوك !

على أن هذا كان أمرا هينا نسبيا .. والأنكى منه أن « ديميترى نيكلودوف » وجد من الوقت ما يكفى لقراءة كتابى : « المشكلات الاجتماعية » و « التقدم والفقر » لهنرى جورج . **وما ان فرغ منهما ، حتى كان قد اقتنع بأن المؤلف كشف حقائق عظيمة ، وأن امتلاك الأرض جريمة ، وأنه أمر لا يقل خزيا عن امتلاك العبيد ، ومن ثم فعليه أن يتخلص من ضياعه فى أقرب فرصة !..** وكانت مدام « نيكلودوف » تذعن لابنها فى كثير من النقاط ، كما كان « ديميترى » من ناحيته يخضع لارادتها فى أمور أخرى : من ذلك أن أمه وافقته على أن يهجر الجامعة ، التى قرر الانصراف عنها مذ تبين أن المرء

لا يتعلم فيها ما يساير الحياة الحقيقية ، وانما ما يتلاءم مع الأوضاع القائمة فحسب .. كذلك سمحت له أمه بالسفر الى الخارج .. ومن ناحيته هو ، رضخ لارادة والدته ، فعدل عن عزمه على منح الفلاحين ضيعته الصغيرة التى ورثها عن والده ، ووافق على أن ينتظر - على الأقل - حتى يبلغ سن الرشد .

وعندما سافر « ديميترى » الى الخارج ، كى يدعم أفكاره عن الطبيعة الاجرامية للملكية - مهما يكن نوعها - تبين لفرط أساه ، أنه يوجد هناك عين ما فى روسيا من بلبلة ذهنية وتردد . كان القوم يتجاوزون - فى صمت - مسألة الملكية العقارية ورأس المال ، ليخوضوا بحرارة مجادلات بلهاء بصدد احتساب يوم العمل ثمانى ساعات ، والتأمينات الاجتماعية ، وغيرها من اجراءات تقصر عن تعديل حالة الطبقة العاملة . واذ خاب أمله فى تدعيم آرائه فى أوربا ، راح يفكر فى السفر الى أمريكا ، واذا أمه ترجوه أن يعود .. فأعرب لها عن اعتزامه السفر الى (هايدلبيرج) لدراسة الفلسفة . غير أنه لم يلبث أن عاد الى روسيا ، لأن أسلوب التدريس - الذى كان الأساتذة الألمان يتبعونه - لم يرضه . وفى روسيا ، أثار بالغ الحزن لدى أمه ، اذ أقام فترة عند عمتبه ، فى الريف .. ليؤلف - فى هدوء تام - كتابا عن آرائه الاجتماعية !

بيد أن مدام نيكلودوف ، استطاعت أن تحثه على العودة الى (سانت بطرسبورج) ، حيث وثق صداقته مع الكونت « شوينبك » Shoenbek - صديق طفولته - الذى كان قد أتم دراسته ، وانخرط فى احدى كتائب الحرس . وعن طريقه ، تعرف « ديميترى » على كثير من الأصدقاء ، واندفع فى كافة ألوان لهو الشباب ، وقد نسى البرنامج الذى أعده لدراسته ونشر آرائه !

أما والدته ، فلم تكتف باغماض عينيها عن حماقات ابنها

فحسب ، بل راحت تشجعه . وكانت تقول له : « يجب أن يستمتع المرء بشبابه .. أن يحظى بكل ما للشباب من حقوق ! » .. وأخذت تدفع عنه ديونه راضية ، وتمنحه من المال مشتهاه .. غير أن « ديميترى » – وقد تذوق لذة الحياة الفكرية من قبل – كان شديد السخط على نفسه ، ولم يقنع بالاكتفاء بحياة (سانت بطرسبورج) الصاخبة !

وفى تلك الأثناء ، اندلعت الحرب بين روسيا وتركيا ، فانضم « ديميترى » الى احدى الكتائب ، وسافر الى الجبهة ، برغم شدة معارضة والدته . وظل فى صفوف الجيش العامل حتى نهاية الحرب ، ثم قضى عاما آخر فى (سانت بطرسبورج) ، حيث انضم الى احدى كتائب الحرس . ولكن حياة الفراغ التى عاشها فى العاصمة ، كانت قد جعلته يشغف بلعب الورق ، ففقد الضيعة التى ورثها عن أبيه . وشعر باستياء لم يخامره مثله من قبل ، فهجر (سانت بطرسبورج) ، ليقيم فى احدى ضياع أمه . وما لبث أن غادر الريف وذهب ليعيش فى موسكو .

● ●

● **شعر** « ديميترى » باضطراب ، للرسالة الواردة من (ريازان) ، والتى ذكرته بكل تلك الأحداث .. وبذل مجهودا – ليس بالقليل – لكى يفهم تلك الحالة الذهنية التى سببت له من الحيرة فوق ما كان يود . فقال لنفسه : **« يجب أن أجاوب هذا الأمر على أية حال . حسنا ! ها هو ذا التاجر يرجونى أن أجدد له الاتفاق ، أو بالأحرى أن أجدد صك العبودية المفروضة على فلاحى ثلاث قرى ! الآن فهمت ... يجب أن أفكر فى الأمر طويلا . الواضح أننى لا أستطيع أن أهب أرضى للفلاحين ، لأتمتع – بعد ذلك – بممتلكات زوجتى المقبلة ! »**

وزاده ضيقا ، أن الحجج المبهمة ـ التى كان يحاربها فى الماضى بكثير من الحماس ـ فرضت نفسها عليه فجأة .. فرأى أنه من المستحيل على امرىء أن يناضل وحيدا ضد نظام قائم ومقبول لدى الجميع .

وصاح ديميترى : « لا !.. لا أريد أن أكذب ! بل يجب ألا أكذب !.. كل ما فى الأمر ، هو أننى لا أستطيع أن أتخذ ـ فى الوقت الحاضر ـ أى قرار حاسم . ولكنى ، بمجرد أن أفرغ من مهمتى فى المحكمة ، سأتخذ قرارا ـ مهما يكن ـ بصدد آلين ! » .. واذ راودته هذه الفكرة ، شعر برغبة لذيذة تسرى فى أوصاله . فأخذ يتمثل « آلين » ، ويتذكر وجهها وكلماتها .. وقرأ خطابها مرة أخرى ـ وهو يبتسم ـ ثم عاد يقول لنفسه : « نعم ، نعم ، هذا ما ينبغى ! يجب أن أنتهى من ذلك على أية حال .. هذا ما أفضله على ما عداه .. وفى هذه الحالة ، يحسن أن أرحل الى الريف ، لأفكر مليا فى الوضع الذى أجدنى فيه ! »

كان يشعر بأنه مرتبط بآلين .. وبالتالى ، كان كل ما تبقى من وجوده ، لا يتوقف على شىء قدر توقفه على الطريقة التى يجب أن يعالج بها علاقته بهذه الفتاة .

وللمرة الألف ، قال لنفسه : « أجل . من الواضح أن المرء لا يستطيع أن يسلك أربع طرق فى وقت واحد .. فمنذ اليوم الذى سأقرر فيه منح أراضى لفلاحى (ريازان) ، يجب أن أفعل الشىء ذاته بالنسبة لفلاحى (نيجنى ـ نوفجورود) و (سمارا) .. وفى هذه الحالة لن يتبقى لى شىء !.. كل هذا كان من الجائز أن يعد تصرفا حسنا جدا فيما مضى ، عندما كنت بمفردى ، وكان بوسعى أن أكتفى بالقليل . أما وأنا أعتزم أن أتزوج ، فالأمر يختلف . وهنا كل المشكلة !.. هذا هو الأمر الذى يضايقنى !.. يجب أن أفكر ، ولنترك الأحداث

تسير فى مجراها الى أن يتسنى لى الوصول للعلاج .. لست أملك أن أفعل غير ذلك ! »

ومن ثم لم يرد « ديميترى » على رسالة المزارع . أما بالنسبة لمذكرة « آلين كارمالين » ، فقد رأى لزاما عليه أن يكتب للفتاة شاكرا ، لأنها ذكرته بواجبه – اذ كان فى الواقع قد نسى هذا الموعد تماما ! – وقرر أن يبذل كل ما فى وسعه ليذهب لرؤيتها فى ذلك المساء .

وكتب رسالة الشكر لها ، وعهد بها الى أحد الخدم ، ثم ارتدى ملابسه على عجل ، وانطلق الى المحكمة .

● ●

● **كان** لزاما على « ديميترى » – وفقا لخطاب الاستدعاء الرسمى – أن يكون فى المحكمة فى العاشرة صباحا على الأكثر . ومع ذلك ، فقد كانت الساعة العاشرة والربع عندما هبط من العربة فى فناء كبير مرصوف بالأحجار ، تحف به أرصفة مغطاة بالقار ، ويؤدى الى الباب الرئيسى للمبنى .. وكان هناك أناس من كافة الطبقات ، فمن رجال ذوى مظهر ممتاز ، الى تجار وفلاحين يروحون ويغدون فى كل الاتجاهات ، ويصعدون درجات السلم ويهبطون ، ويجوسون خلال الردهات ، ويقفون أفواجا أمام الأبواب .. وكان ثمة حجاب – فى زى أزرق ذى ياقة خضراء – يسرعون الخطى عبر الردهات ، حاملين أوامر القضاة ، أو مرافقين الزوار ، يرشدونهم خلال أرجاء المبنى .

واتجه « نيكلودوف » الى أحد الحجاب ، وسأله عن مكان انعقاد المحكمة ، فأجابه الحاجب فى لهجة معاتبة : « عن أى محكمة تتكلم ؟.. هناك محكمة الاحالة ، ومحكمة الجنايات ، وغرفة الاتهام ، وغيرها .. فأيها تريد ؟ »

– محكمة الجنايات ، وهيئة المحلفين .

ـ كان يجب أن تذكر هذا .. تفضل من هنا ، الباب الرابع الى اليسار !

واتجه ((نيكلودوف)) الى الباب المذكور ، ولكنه صادف ـ قبل أن يبلغه ـ حاجبا آخر سأله عما اذا كان عضوا فى هيئة المحلفين ، فلما رد بالايجاب ، أرشده الى قاعة المحلفين ، عند ملتقى الردهات .

وكان هناك رجلان يقفان عاريى الرأس ، عند باب القاعة : كان أحدهما تاجرا ، ضخم الجسم ، بدينا ، أصلع ، تبدو على وجهه سمات الطيبة ودماثة الخلق .. وكان الثانى أشعث الشعر ، ذا لحية صغيرة سوداء ، تنم سماته عن انتمائه للعنصر السامى ، ويشبه ـ الى حد كبير ـ عمال المتاجر .

قال التاجر لنيكلودوف : ((أأنت من المحلفين ؟.. أى منا ؟))

ـ نعم ، اننى محلف .

قال الاسرائيلى : ((وأنا الآخر)) .

ـ اذن ، فسنؤدى مهمتنا معا .

قال التاجر : ((هذا ما ينبغى)) .

ودلف ((نيكلودوف)) الى القاعة ، حيث اجتمع خمسة عشر محلفا . وكان من الواضح أنهم جميعا قد حضروا لتوهم ، اذ راحوا يتأملون القاعة ، ويتبادلون النظر بعضهم الى بعض ، ويتعارفون .. ووفد فى أعقاب ((نيكلودوف)) ـ مباشرة ـ حاجب يرتدى الزى الرسمى ، ويضع على عينيه منظارا ، فوقف عند المدخل ، وخاطب أعضاء هيئة المحلفين قائلا : ((أيها السادة ، انكم هنا فى داركم !.. تستطيعون أن تتصرفوا فى هذه القاعة كما يحلو لكم ، واذا احتجتم الى أى شىء ، فسيكون الساعى ((أوكونيف)) دائما تحت أمركم !))

وبعد أن رد الحاجب على بعض الأسئلة التى وجهت اليه ، أخرج من جيبه ورقة ، وأخذ ينادى أسماء المحلفين :

ـ مستشار الدولة « ايفان ايفانوفتش نيكيفوروف » !

ولكن أحدا لم يجب .. فانتقل الى الاسم التالى :

ـ الكولونيل المتقاعد « ايفان سيميونوفيتش ايفانوف » !

ـ حاضر !

ـ بيير ديوساروف !

وأجابه صوت خافت : « حاضر ! »

ـ الطالب سابقا ، الأمير « ديميترى نيكلودوف » !

وأجاب نيكلودوف : « حاضر ! »

وانسحب الحاجب بعد أن كتب أسماء المحلفين الغائبين .

وما ان أقفل الباب خلفه ، حتى أخذ المحلفون ـ بعد أن تعارفوا ـ يتناقشون فى موضوعات القضايا التى كانت فى انتظارهم .. **كانت هناك قضيتنان خطيرتان ، وسط قضايا أقل أهمية ، وفقا لما قاله واحد منهم ، بدا أنه كان قد استطلع الأمر .. وكانت احدى القضيتين تتعلق بعملية نصب وبتصرفات مبهمة لأحد المصارف تثير الشبهات .. أما الأخرى ، فكانت تتعلق بجماعة من الفلاحين ، تمردوا ضد السلطات .**

وراح المحلف يتكلم عن العدالة وهو بادى السرور ، وكأنه على معرفة وثيقة بالقضاء . اذ كان يذكر أسماء القضاة ، والنائب العام ، وأشهر المحامين الذين سيشتركون فى القضايا ، مستعملا المصطلحات الفنية ، مثل « الاجراءات » و « محكمة النقض » ، موردا فقرات من القانون ، وزملاؤه يصغون اليه باحترام .

لكن « نيكلودوف » كان مستغرقا ، بكل كيانه ، فى أفكاره الخاصة ، التى كانت مقتصرة ـ تقريبا ـ على « آلين كارمالين » ! .. راح يفكر فى رسالتها التى تسلمها فى الصباح ، وفى الرغبة التلقائية لديها فى أن تساعده على تذكر أعماله ومواعيده ، وفى الدعوة الى الغداء ـ بعد المحكمة ـ وفى أمور أخرى ، كانت كلها مما يتجاوز حدود الصداقة العادية .

كان « نيكلودوف » ـ فى الحقيقة ـ « دقة قديمة » بعض الشىء (١) . فلم يكن يتشدق بآراء « عصرية » ، وكان على نقيض شباب اليوم ، لا يرى أن كل امرأة تسارع الى اقتناص أول لحظة تسنح ، لتستسلم للرجل .. ولا كان يعتقد أن كل فتاة ـ فى سن الزواج ـ تنتظر أية اشارة منه ، لترتمى على صدره .. بل انه كان ـ على العكس ـ يرى أن كل سيدات وسطه (ومن المؤسف أنه لم يكن يفكر الا فى سيدات المجتمع الراقى !) مخلوقات لسن أقل استقامة أو شاعرية ، أو رقة ، أو طهرا ، عن والدته .. وعما ينبغى أن تكون عليه زوجتـه المقبلة . وكان هذا سر الخجل الشديد الذى اعتاد أن يعروه بمجرد التقائه بفتـاة تعجبه ويتمنى أن يتزوجها !.. وكان يعتبر نفسه شخصا تافها ، لا قيمة له ، لا بسبب ما كان يراه فى نفسه من « انحطاط » واضح ، اذا قيس ببراءة الفتاة ، وانما أيضا بسبب نقص صفاته المادية والمعنوية عن تلك التى كان يضفيها على الفتاة التى « قد » تصبح خطيبته !

وبرغم هذه الأفكار ، كان « نيكلودوف » قد شرع ـ منذ فترة ـ فى اقناع نفسه بأن « آلين » ما كانت لترفضه ، مهما تكن عيـوبه ، اذا هو قرر ـ فى النهاية ـ أن يطلب يدها . والواقع أنه أصبح راغبا فى الزواج ، بعد أن بدأ يضيق بحياة العـزوبة ، بما فيها من خير وشر ومتناقضات ومشـكلات متعارضة . ومن جهة أخرى ، كانت « آلين » تفتنه وتجذبه اليها بشبابها الغض وسحرها الغامض ، وبوعود لم يستطع أن يفطن الى سرها بعد . ولكنه فى نهاية المطاف ، كان يجد ـ بما اعتاده من صراحة مع نفسه ـ أن عليه أن يقرر ما اذا كان يحب « آلين » أو لا يحبها !

كان قادرا على أن ينساها ، اذا بقى فترة من الوقت دون

---

(١) هذا أصح تعريب للتعبير الذى استخدمه المؤلف : Vieux Jeu

أن يراها . أما عندما كان يكثر من رؤيتها ـ كما كانت الحال فى تلك الفترة الأخيرة ـ فانها لم تكن تبرح خياله أبدا . وكان يعجب ـ فى أحلامه ـ بابتسامتها المشرقة ، ويسمع صوتها .. كان يتمثلها بصورة شاملة ، ولكنه كان يعجز عن تمييز قسمات وجهها وتفصيلات جسدها .. كان يراها وقد فرغت من عزف المقطوعات الموسيقية التى يحبها ، وأخذت تنهض عن المعزف ، ووجهها متورد ، فترمقه طويلا ـ وعيناها فى عينيه ـ وهى مضطربة المشاعر ، دون أن تقوى على التحول عنه .. وفى هذه اللحظات ، كان يشعر براحة غامرة وابتهاج متألق ، فى قربها .. فلا يرتضى أن يفرقه عنها شىء فى الدنيا بأسرها !

وهكذا راح يفكر ، فيما هو جالس فى قاعة المحلفين .. يفكر فى الطريقة التى سيطلب بها يدها ، اذا ما أقدم .. أين ؟.. وكيف ؟.. وبأى أسلوب ؟.. وماذا يكون تصرفها ؟.. هل ستدهش لذلك ؟ هل ستغضب ؟.. ومن جديد ، تمثلها أمامه ، وسمع صوتها !

وقال لنفسه : « كلا .. كلا .. لا ينبغى التفكير فى هذا .. لن تقودنى تأملاتى الى شىء . اذا كان لزاما أن تنتهى علاقتنا على نحو ما ، فليكن ذلك تلقائيا ! »

وعند هذا الحد ، نهض من مكانه ، ودلف الى الردهة . كانت الحركة من حوله تزداد شيئا فشيئا .. فالسعاة ـ برغم كبر سنهم ـ يروحون ويجيئون فى كل الاتجاهات ، حاملين الأوراق فى أيديهم .. والحجاب والقضاة والمحامون يسيرون حوله .. وهو يشعر بذلك الاستغراق الذى كان ينتابه عادة فى الكنيسة ، أثناء القداس . ولكنه فى الوقت ذاته ـ وبرغم ما خيل اليه من خلو رأسه من كل انتباه ـ كان يعى كل ما يدور حوله بكل دقائقه ، وبوضوح غير عادى !

.. فهذه امرأة ارتدت قبعة غريبة الشكل ، مزدانة بزهرة

صفراء ، وقد جلست على أريكة تستشير محاميها .. هى تتكلم بدون انقطاع ، والمحامى يحاول عبثا أن يقتنص لحظـة تكف فيها عن الحديث ، ليلقى اليها باجابته التى أعدها من قبل .. وهذا ساع يبدو أنه تسلل ليشعل سيجارة فى الخفاء ، ولكنه أسرع يعترض شابا أراد دخول مكان غير مباح للجمهور دخوله .. أما هذا القاضى السمين ، الذى انتفخ وجهه من فرط ما به من شحم ، وكسا الشعر الأبيض المجعد قفاه ، وبدت ساقاه مقوستين ، فقد انطلق فى الردهات التى شهدت مراحل عمره ، وهو يرتدى وشاحا قديما ، وقد حمل حقيبة أوراقه فى يده .. **وها هو ذا محام شهير ، فى أبهى أناقته ، يتظاهر ـ كما يفعل الممثل قبل أن يبدأ دوره ـ بأنه لا يفطن الى أن كل العيون مسلطة عليه .. وهذا وكيل نيابة أعجف ، فى سترة بدون أزرار ، يحمل حقيبته تحت ابطه ، ويؤرجح يده الخالية بهمة ترتفع بها الى طول جسمه ، وقد انطلق فى الردهة بخطوات سريعة ، وهو يهز كتفيه ، ويكاد يجرى دون أن يلتفت وراءه ، وقد بدا جليا أنه يتظاهر بالانهماك فى أداء أعماله ..** وهذا قسيس متقدم السن ، قصير القامة ، ذو وجه أحمر ممتلىء ، وشعر أبيض ، ولحية قصيرة بيضاء تبدو خلالها بشرته المشربة بالحمرة ، يسير بادى الضجر ، وهو يجر قدميه جرا وكأنه يضيق بهذه الأماكن التى كثيرا ما ألقى فيها المواعظ وهو يتلقى حلف اليمين من كثيرين . وها هى ذى مجموعة من النساء والرجال ، يرتدون المعاطف الخاصة بالمسجونين ، وتسبقهم أصوات السلاسل التى تقيـــدهم ، وتقودهم جماعة من الجنود المسلحين بالبنادق .

واقترب من « نيكلودوف » أحد زملائه ، فى اللحظة التى تنحى فيها جانبا ليفسح الطريق للمسجونين ..

وسأل نيكلودوف زميله : « قل لى ، من هؤلاء ؟ .. أهم الذين سوف نبت فى أمرهم ؟ » .. فأجابه الآخر : « كلا ، أنهم

يساقون أولا الى قاضى التحقيقات » .. وأشار الى أحد المسجونين ، وقال : « آه ، يا له من رجل ! انه مخيف .. أليس كذلك ؟ »

قال نيكلودوف موافقا ، على الرغم من أنه لم يلاحظ شيئا غير عادى على وجه المسجون : « بلى ! .. بلى ! »

واستوقف « نيكلودوف » محام من أصدقائه القدامى ، صائحا :

ـ صباح الخير يا أمير ! .. اذن فأنت الآخر هنا ؟

ـ نعم كما ترى .. هل سيطول بنا الانتظار ؟

ـ لست أدرى ، ولكن .. أخبرنى يا أمير ، أهذه هى المرة الأولى التى تأتى فيها الى هنا ؟

ـ نعم ، هى المرة الأولى .

ـ أحسبك لا تعرف قاعات المبنى ؟

ـ كلا ، فى الحقيقة !

ـ تعال وتعرف عليها ، فهى مثيرة !

وسارا فى الردهة ، وما لبث المحامى أن تساءل :

ـ لعلك لم تر القاعة المستديرة المشهورة ، كذلك ؟

ـ لقد أخبرتك أننى لم أتعرف على شىء هنا .

ـ فلنذهب اليها !

واقترب « نيكلودوف » والمحامى من أحد الأبواب ، فأراه هذا الأخير قاعة بديعة ، مستديرة الشكل ، وقال : « هنا تعرض القضايا الهامة . جدير بك أن تشكر الله لأنه جنبك هذا العذاب . تصور أن أعضاء المحكمة يبيتون فى هذه القاعة ـ أحيانا ـ يومين أو ثلاثة بل أربعة أيام . أما قضاياكم فلا تتضمن ـ على ما أتذكر ـ شيئا غير عادى .. سرقة بالاكراه .. نصب .. قتل فرد واحد .. بالاختصار ، ليس فيها شىء مثير ! »

ـ هل أنت بين محامى الدفاع ؟

ـ كلا ، اننى ـ على العكس ـ أوجه الاتهام .
ـ كيف ؟
ـ نعم اننى أمثل الجانب المدنى .
ـ ألم تر آل « المازوف » منذ زمن بعيد ؟
ـ نعم منذ فترة طويلة .. قيل لى ان « مارى باڤلوفنا » مريضة جدا .

وفى عودتهما شاهدا مساجين آخرين يدخلون القاعة التى آوت اليها هيئة المحلفين ، والتى كان نيكلودوف من أعضائها .. وكانوا مجموعة صغيرة ، ضمت رجلا وامرأتين ، ارتدت احداهما ملابس المدينة ، بينما ارتدت الأخرى زى السجن .

وقال المحامى ، وهو يبتسم : « ها هم أبناؤك المقبلون ! »

ولم ترق هذه الدعابة لنيكلودوف ، فحيا المحامى ، ثم دخل الى القاعة ، فى اللحظة التى أقبل فيها الحاجب .. وكان المحلفون هناك بأكملهم . فناداهم الحاجب مرة أخرى بأسمائهم ـ اسما اسما ـ ثم دعاهم للذهاب الى قاعة الجلسة ..

وكان أناس كثيرون يتجهون صوب هذه القاعة : الكبار والصغار ، من يرتدون ملابس عادية ومن يرتدون ثيابا رسمية أو سترات بسيطة .. الأصلع منهم وذو الشعر الكثيف .. الأسمر منهم والأبيض . احتشدوا كلهم عند الباب ، ثم انتشروا فى القاعة ، ليجلسوا فى الأماكن المخصصة لكل فريق منهم .

كانت القاعة طويلة وواسعة ، تشغل جانبا منها منضدة يكسوها غطاء أخضر ، وخلفها ـ على الحائط ـ لوحة تمثل القيصر وهو واقف ، وترتفع حافتها حتى السقف .. وفى الركن الأيمن ، قامت خزانة زجاجية مثبتة الى الحائط ، ضمت ايقونات . والى جوارها منصة متوارية ، عليها نسخة من الانجيل ، لتؤدى عندها اليمين .. أما الجانب الأيسر ، فقامت حوله قضبان حديدية ، حجز وراءها المسجونون ، وقد وقف خلفهم شرطة شهروا سلاحهم . وأمام القضبان ،

أقيمت مناضد خصصت للقضاة والمحلفين .. والى جانب من هذه المناضد ، جلس المحلفون على أرائك خشبية .. أما الشطر الأقصى من القاعة ، فقد فصل عن بقيتها بقضبان حديدية ، وازدحم بصفوف من الأرائك الخشبية ، بعضها أعلى مستوى من بعض ، على شكل مدرج .. وبين الجمهور الذى كان يشغلها ، ظهرت ثلاث نساء أو أربع ، من العاملات أو الخادمات ـ فما كان من اليسير الجزم بحقيقتهن من مظهرهن ـ ورجلان بدا أنهما من العمال كذلك .

● ●

● **ما ان** جلس المحلفون ، حتى أعلن الحاجب ـ بصوت حاد مزعج ـ قدوم هيئة المحكمة ، فاستوى الجميع واقفين .. ودخل القضاة ، يتقدمهم رئيس المحكمة . **وكان رجلا طويلا ، ممشوق القوام ، عرفه ((نيكلودوف)) فى الحال .. فقد التقى به فى المجتمعات ، واعتاد أن يسمع الناس يصفونه بأنه راقص من الدرجة الأولى !** .. أما القاضيان الآخران ، فلم يعرف نيكلودوف أيا منهما .. كان أحدهما مفرط السمنة ، أحمر الوجه ، ذا نظارة ذهبية .. أما الآخر ، فكان ـ على العكس ـ طويلا ، نحيفا ، شاحب الوجه ، غير متزن الحركات ، يبدو فى حالة انفعال مستمر !

وأقبل وكيل النيابة ـ فى اللحظة التى دخل فيها القضاة ـ فاذا به نفس وكيل النيابة الذى كان ، قبل لحظات ، يسرع الخطى فى الردهة ، حاملا حقيبته فى احدى يديه ، ومحركا اليد الأخرى فى الهواء .. واتجه وكيل النيابة ـ وهو مازال يضم حقيبته الى جنبه ـ نحو النافذة ، ثم جلس فى تؤدة فى أحد المقاعد ، وعكف لفوره على دراسة أوراقه .. بينما أخذ كاتب الجلسة ـ الذى جلس فى الناحية المقابلة ـ يتصفح هو الآخر بعض الملفات .

كانت الأجراءات التقليدية ـ التى أوشكت أن تبدأ ـ

مملة لجميع المشتغلين بالأعمال القضائية من الحاضرين : المناداة بأسماء المحلفين ، اثبات الغائبين منهم ، الاستماع الى مبررات الذين يرفضون منهم أداء اليمين ، سؤال وكيل النيابة عن رأيه فى هذا الصدد ، تقرير اعفاء البعض من هذا الاجراء الشكلى والحكم على بعض آخر بغرامة .. ويعقب ذلك طى وريقات صغيرة تحمل أرقاما ، ووضعها فى وعاء لاجراء الاقتراع ، الذى يحدد رسميا المحلفين العاملين ، والمحلفين الاحتياطيين الذين يحلون محلهم اذا ما تغيبوا .

وظل « نيكلودوف » جالسا دون حراك ، ودون أن يفكر فى شىء معين ، خلال هذه الفترة .. وأخذ يستمع الى الناس وهم يتكلمون أو يتجادلون ، وينظر اليهم وهم ينهضون فيقتربون من منصة القضاة ، ثم يعودون الى أماكنهم .. وأخيرا ، لزم الجميع الصمت ، وشرع القضاة يتشاورون بصوت خافت .. فأخذ « نيكلودوف » يتفرس فى المتهمين : الرجل والمرأتين الذين رآهم — من قبل — فى الردهة .

كان الرجل ضئيل الجسم ، ذا شعر يميل لونه الى الاحمرار ، وذا وجه أجرد تناثرت فيه بقع حمراء ، ووجنتين بارزتى العظام غائرتى الجلد .. وكان شديد الانفعال ، يرمق احدى السجينتين بنظرات قاسية ، ويتمتم — من وقت لآخر — بكلمات غير مفهومة .

وكانت احدى السجينتين — وهى تلك التى ارتدت ثياب السجن — جالسة منكسة الرأس ، فغاب كل الجزء الأسفل من وجهها فى الظلال ، ولم يظهر الا جبينها ، الذى بدا مفرط الجمال ، وقد أحاطت به خصلات سوداء صغيرة ، افلتت بدلال من الشريط الذى أحاطت به شعرها .. وكان أنفها مستقيما ، وعيناها عجيبتى السواد ، ما ان كانت ترفعهما حتى تبادر الى غضهما . وكان وجهها أصفر ينم عن سقام ، وتنطق تعبيراته بالارهاق وعدم الاكتراث فى آن واحد !

وبالرغم من قبح المرأة الأخرى ـ اذ كانت طويلة ، نحيلة ، ترتدى ثوبا ورديا ـ فانها كانت تستلفت النظر بملامحها الناطقة بالنشاط والذكاء وقوة العزيمة ، وبذقنها البارز فى عناد .. وكان منظرها ـ وقد جلست القرفصاء بين زميليها ـ يوحى بأنها ولابد المحرضة الحقيقية ، لو أن هناك جريمة حقا . وكانت ـ من ناحيتها ـ ترمق الرجل فى غير استلطاف ، بينما ترمق زميلته فى احتقار .

وقال « نيكلودوف » فى نفسه ، وهو يرقب المتهمين : « اننا بصدد جريمة قتل طفل ، ولابد ! »

ثم أخذ يتخيل قصة تلعب فيها الشابة دور الأم ، والرجل دور الأب ، والمرأة ذات الحيوية والدهاء دور المنفذ للجريمة .

وانتزع « نيكلودوف » من تأملاته ـ فجأة ـ صوت رئيس المحكمة ، يدعو المحلفين الى اداء اليمين . فوقف المحلفون وتقدموا ـ كالقطيع ـ نحو الركن الذى كان القس السمين فى ارتقابهم عنده ، وقد ارتدى طيلسانا من الحرير الأسود ، وعلق على صدره وساما وصليبا من الذهب .

وبهت « نيكلودوف » ـ فى بادىء الأمر ـ لاضطراره لأداء هذا القسم . فعلى الرغم من أنه لم يكن يحفل بمثل هذا الاجراء التقليدى ، الشكلى ، فانه شعر بخجل لاضطراره الى ترديد نص اليمين ـ كلمة فكلمة ـ وراء القس الشيخ ، الذى كان يألف هذا الاجراء ولابد ، حتى انه لم يعد يفكر فى أهميته . ولكن ذلك لم يمنع « نيكلودوف » من رسم علامة الصليب ، ثم التوجه الى منصة الانجيل ، وتقبيل الكتاب المقدس والصليب الذهبى .. غير انه استاء عندما ذكر الرئيس ـ فى الكلمة التى وجهها الى المحلفين ـ انهم اذا لم يحكموا بأمانة فى القضايا ، فسيستحقون القصاص ، جزاء أدائهم اليمين زورا . وتساءل « نيكلودوف » فى نفسه :

« هل من الضرورى حقا أن يكون الخوف من جريمة الحنث

باليمين ، ناشئا عن الخوف من عقاب تفرضه النيابة ؟ »

وعاد المحلفون الى أماكنهم ، بعد أن استمعوا الى رئيس المحكمة ، الذى أسهب فى شرح ما كانوا يعرفون .. ثم بدأ النظر فى القضية ، فراح « نيكلودوف » يتتبعها باهتمام متزايد ، ادراكا منه لواجبه . وصاح الرئيس موجها الكلام الى المرأة ذات الحيوية والدهاء ، التى كانت تجلس فى الوسط :

ــ المواطنة أيفيمى بوتشكوڤا Ephime Botshkova ما لقبك ؟

ــ بوتشكوڤا .

ــ وما اسمك الأول ؟

ــ ايفيمى .

ــ وما تبعيتك ؟

ــ روسية .

ــ أأرثوذكسية أنت ؟

ــ ارثوذكسية طبعا . . كيف تريدنى ألا أكون ارثوذكسية ؟

ــ انك متهمة بالسرقة التى ارتكبت فى ١٧ يناير ، بالاشتراك مع « سيمون ايباتوف Simon Ipatoff و « كاترين ماسلوڤا » Katherine Masslova ، فى فندق (موريتانيا) .. اذ سرقتم من حجرة التاجر « ايڤان سميلكوف » Ivan Smielkoff الأشياء التالية : ساعة ، وخاتم ، ومبلغ ١٨٣٧ (روبل) و ٤٠ (كوبيك) نقدا . وبعد أن قسمتم الأشياء المذكورة فيما بينكم ، سقيتم التاجر « سميلكوف » شرابا تسبب فى موته ، وذلك لاخفاء الجريمة ، فهل تعترفين انك مذنبة ؟

فقالت المتهمة ، برباطة جأش : « لست مذنبة فى شىء ، بل اننى لم أذهب حتى الى حجرة سميلكوف ... »

وقاطعها الرئيس موجها الكلام الى الرجل المتهم :

ــ الفلاح سيمون ايباتوف : لقبك ؟ اسمك ؟ تبعيتك ؟

هل عمدت ؟ .. ألم تعاقب قط لارتكابك جريمة ما ؟ .. هل تعترف بأنك مذنب اذ أحضرت فى يوم ١٧ ينـاير الى فنـدق موريتانيا « أفيونا » ، بنية قتل التاجر السيبيرى « ايڤـان سـميلكوف » ؟ .. انك متهم باستخـدام المرأة « كاترين ماسلوڤا » لتقديم هذا الأفيون ـ مذابا فى كأس من النبيذ ـ الى « سميلكوف » ، مما تسبب فى موته .. وأنت متهم كذلك بسرقة ساعة المجنى عليه ، وخاتمه ، ومبلغ ١٨٣٧ (روبل) و ٤٠ (كوبيك) كانت فى محفظته ، واقتسمت هذه النقود مع « ايفيمى بوتشكوڤا » و « كاترين ماسلوڤا » ... فهل أنت مذنب ؟

ـ كلا . لست أعرف شيئا .. بل ما عرفت شيئا قط ، لأننى كخادم ...

ـ بوسعك أن تشرح فيما بعد .. هل تعترف بأنك مذنب ؟ .. هذا ما أسألك الآن ؟

ـ كلا ، لأننى ...

ـ فيما بعد !

وأسكت الحاجب « ايڤان ايباتوف » ، كما يفعل الملقن مع ممثل يشعر بأنه بدأ يخرج عن نص الرواية ويتخبـط .. والتفت الرئيس الى المتهمة الأخيرة ـ كاترين ماسلوڤا ـ وقد رفع برشاقة يدا تعبث بسكين للورق ، وسألها : « لقبك ؟ »

وتمتمت المرأة ببضع كلمات ، بصوت خافت جدا لا سبيل لتمييزه . ولكن الرئيس لم يكرر السـؤال ، اذ كان ـ وكل الحضور ـ يعرفون أنها تدعى « كاترين ماسلوڤا » ، فتحـول يسألها تباعا ، دون أن ينتظر منها جوابا : « تبعيتك ؟ .. أأرثوذكسية أنت ؟ .. هل عمدت ؟ »

وارتسمت على محياه أسارير الشخص الذى يضطر الى ممارسة شكليات ، لا تتناسب مع مقامه السامى !

وعاد رئيس المحكمة يقول : « **كاترين ماسلوفا !.. أنت**

متهمة بأنك ذهبت من بيت للدعارة الى فندق موريتانيا .. وبأنك أعطيت التاجر ايفان سميلكوف نبيذا ممزوجا بالأفيون. وبعد أن غاب المدعو سميلكوف عن وعيه، سرقت منه ساعته، وخاتما، ونقودا تقاسمتها مع ايفيمى بوتشكوفا وسيمون ايباتوف .. فهل تعترفين بأنك مذنبة ؟ »

وأطرقت المتهمة برأسها، حتى اختفى الجزء الأسفل من وجهها تماما فى ياقة المعطف .. ومن جديد، أخذت تتمتم بكلام غامض. فصاح القاضى: « تكلمى بصوت أكثر ارتفاعا، حتى يسمعك الحاضرون جميعا ! » .. ولكنها اكتفت بأن همست - مرة أخرى - بجملة قصيرة غير مفهومة، فاندفع الحاجب نحوها، وأمرها بطريقة أكثر وضوحا: « تكلمى بصوت أكثر ارتفاعا ! »

وعندئذ، صاحت المتهمة فجأة، بصوت مبحوح بعض الشىء: « لم اعطه شيئا ! » .. ثم أضافت: « عندما وصلت، كان هو قد ثمل ! »

وسألها الرئيس بحدة: « وبعد ؟.. ألا تعترفين بأنك مذنبة ؟ »

- كلا، فقد كنت - أنا نفسى - مخمورة للغاية !

وانفرجت شفتاها عن ابتسامة مزرية، زاد من بشاعتها أن كشفت عن غياب اثنتين من أسنانها الأمامية .. ثم أردفت: « لكم أن تفعلوا بى ما تشاءون، ولكنى لا أتذكر شيئا ! » .. ثم أرخت جفونها على عينيها، وعادت - بعد لحظة - ترفعها، وقد تألقت عيناها ببريق غريب .. وما لبثت أن أطرقت برأسها مرة ثانية ..

- ترى أين رأيت هاتين العينين ؟ .. وهذه النظرات الخجول، الناعمة، المليئة بالانتظار ؟

جال هذا التساؤل بخاطر « نيكلودوف »، الذى شده - رغما عنه - الى المتهمة شىء لم يعرف له تحديدا .. فراح



« ترى أين رأيت هاتين العينين ؟.. وهذه النظرات الخجول ، الناعمة ، المليئة بالانتظار ؟ » جال هـذا التساؤل بخاطر « نيكلودوف » !

يتأملها ، وقد سمرت عيناه ـ بقوة سحرية ـ الى عينيها !

غير أنه عجز عن أن يتذكر : أين ومتى رأى هذه النظرات .. برغم ما بذل من جهود !

وبدأ استدعاء الشهود ، بعد ذلك ، وكان كثير منهم متغيبين .. وتابع « نيكلودوف » باهتمام قرار المحكمة بشأن الغائبين ، وقرارها برفض بعض الشهود . بيد أن اهتمامه البالغ بهذا ، لم يمنعه من أن يلقى ـ بين وقت وآخر ـ نظرة على المسجونين .. كانت « ايفيمى بوتشكوڤا » تتحدث الى محاميها . أما « أيباتوف » ، فكان يجيل بصره فيما حوله ، ويتمتم بدون انقطاع .. وكانت (ماسلوڤا) هى الوحيدة التى ظلت ساكنة جامدة ، وقد التفت فى معطفها الباهت . وكان وجهها يضىء بتلك النظرة الساحرة ـ فى فترات نادرة ـ وهى ترمق زميليها تارة ، والجمهور أخرى ، والقضاة ثالثة .. غير ان نظرتها تلك لم تكن تستمر لأكثر من لحظة ، ينخفض بعدها بصرها .

● ●

● **وبعد** الانتهاء من مناداة الشهود ، عينت المحكمة عددا من المحلفين ، بدلا ممن تخلفوا عن الحضور ـ لأسباب عديدة ـ ثم بدىء فى قراءة قرار الاتهام :

« بتاريخ ... من سنة ... ، بعث ايڤان سميلكوف ، التاجر السيبيرى ـ الذى كان نزيلا بفندق موريتانيا ـ فى طلب المدعوة « كاترين ماسلوڤا » ، الشهيرة بلوباشا Lubasha والتى رشحها له ـ من أحد بيوت الدعارة ـ سيمون ايباتوف الخادم المختص بالطابق الذى كان النزيل يحتل احدى حجراته ، بالفندق المذكور .. واذ وصلت « كاترين ماسلوڤا » الى الفندق ، وجدت التاجر فى حالة سكر ، فطلبت أن تتقاضى أجرها مقدما . وثارت ثائرة التاجر المذكور ، وضرب « ماسلوڤا » بعنف طوح بها الى الأرض . **لكنه عندما**

رآها فى هـذا المنظـر ، أخـرج حافظة نقوده ـ التى كانت تحتوى على عدد من الورقات ، من فئة المائة روبل ـ وأعطى المرأة خمس ورقات ، كما تعهد بأن يعطيها مثلها اذا هى بقيت معـه ولم تتركه . وقد بقيت « كاترين ماسـلوڤا » ، ولكن التاجر كان ثملا ، فنام فى الحال . وخرجت « ماسلوڤا » الى الردهة ، حيث التقت بسيمون ايباتوف ـ الخـادم المختص بالطابق ـ ووعدته بأن تعود فى الثامنة صباحا .

« وحضرت فى الموعـد المتفق عليه ، وبقيت بالقـرب من العميل حتى الساعة الثانية ، من بعد الظهر ، وهو الموعد الذى استطاعت عنده أن تصطحب « ايڤان سميلكوف » الى بيت الدعارة . فظل التاجر هناك ـ بصحبة « كاترين ماسلوڤا » ونساء أخريات ـ حتى الساعة الخامسة مسـاء . وفى تلك الساعة ، بعث التاجر بماسلوڤا الى الفندق ، لتأتى له ببعض المال ، وأعطاها مفتـاح حقيبته . وفى الفنـدق ، دخلت « ماسلوڤا » حجرة التاجر ، وبصحبتها سيمون ايباتوف ، وأخـذت ـ فى حضـوره ـ أربعين (روبل) ، حسب نص شهادته . ثم عادت الى البيت ، وبقيت مع التاجر سميلكوف طوال السهرة . وعاد التاجر ـ بعد ذلك ـ الى الفنـدق ، وبصحبته « ماسلوڤا » ، الشهيرة بلوباشا . واذ ذاك ، اتفق المتهمون الثلاثة على أن يسقوا ايڤان سميلكوف خمرا ـ من جديد ـ حتى اذا ثمل تماما ، انتهزوا الفرصة لسرقة نقوده .

« وكان لدى سيمون ايباتوف قليل من الأفيون ، أخـذه من احدى المدمنات ، أثناء اقامتها فى الفندق وقتا طويلا . فعهد الى « كاترين » بأن تسكب لعميلهـا السم فى كوب من النبيذ ، ثم تقدمه اليه . وسكر ايڤان كما لم يسكر من قبل قط ، وصمم على أن ترقص له « لوباشا » . واذ ذاك سألته « ايفيمى بوتشكوڤا » ـ التى حضرت هذا اللقاء ـ أن يشرب كأسا أخرى . ورضوخا لأمر بوتشكوڤا ، سكبت « لوباشا »

بعض قطرات من الأفيون فى النبيذ ، وقدمته للتاجر . وما ان شرب الكأس ، حتى استلقى على احـدى الأرائك ـ خائر القوى ـ وراح فى سبات عميق . فأخرج سيمون ايباتوف حافظة النقود من جيب التاجر النائم ، وأخذ كل ما كان فيها من نقود ، كما استولى على الساعة ، وعلى خاتم . وبعد أن أعطى هذا الخاتم الى ((ماسلوفا)) ، صرفها من الفندق .

((ولما كانت هى الأخرى مخمورة ، فقد راحت تتباهى بالخاتم المذكور ، فور وصولها الى البيت . واذ رأته رئيستها ، أخذته منها ، وأعطتها عشرة روبلات . ثم حملته الى أحد تجار المجوهرات ليقدر ثمنه . ولكنه لم يكد يرى الخاتم الثمين ، حتى اهتم بمعرفة مصدره . وعندما حصل على بعض المعلومات ـ بهذا الصدد ـ أسرع الى الشرطة وأبلغهم بالأمر . وكان الشرطة ـ فى الوقت ذاته ـ قد فتحوا التحقيق بصدد التاجر ((ايفان سميلكوف)) ، الذى توفى فجأة فى حجرته بالفندق . واتجهت شكوك الشرطة ـ فى الحال ـ الى المرأة ((كاترين ماسلوفا)) ، التى وشت ـ دون تردد ـ بسيمون ايباتوف وايفيمى بوتشكوفا ، باعتبارهما شريكيها . وعلى الرغم من اعتراف هذين الأخيرين فى مبدأ الأمر ، فانهما عادا وأنكرا باصرار اشتراكهما فى الجريمة ...))

● ●

● **أخذ** ((نيكلودوف)) يستمع باهتمام بالغ ، وقد انتابه جزع من ضراوة الأخلاق التى كشف عنها قرار الاتهام ، وعاوده شعور اعتاد أن يساوره فى مثل هذه الحالات .. شعور بمدى سموه على وسط تحدث فيه مثل هذه الموبقات .

وكان صوت السكرتير أجش ، وقد بدا كأنه يتلاشى شيئا فشيئا ، كلما استمر فى القراءة . وعندما وصل الى الفقرة التى ورد فيها أن التاجر سميلكوف ـ الذى كان يهتم اهتماما خاصا بلوباشا ، كما قيل ـ أوفد المرأة بالمفتاح الى حجرته

بالفندق ، لتوافيه ببعض المال .. عندما وصل السكرتير الى هذه الفقرة ، نظر « نيكلودوف » نحو المتهمة ، فى الوقت الذى رفعت فيه عينيها – وكأنها مزهوة بالثقة التى أولاها سميلكوف اياها – وتطلعت الى السكرتير .. ثم أخذت تنقل بصرها بين المحلفين ، وركزته – برهة – على « نيكلودوف » ..

وشعر الشاب فجأة بأن شيئا قد انفجر فى رأسه ، فان الذكرى التى كانت – قبل لحظات – ترقد فى مكان بعيد جدا ، وهى ترزح وتتوارى تحت احساسات وانطباعات أخرى ، أخذت تشق لها طريقا ، لتطفو أخيرا على سطح ذاكرته ..

وهتف فى نفسه : « انها كاتوشا ! .. كاتوشا التى كانت تعمل عند عمتى مارى ايفانوفنا » !

ومنذ تلك اللحظة ، أخذ يحدق فى المتهمة ، وهو يلهث .. كانت تجلس منكسة الرأس ، كعهدها من قبل .. وأخذ « نيكلودوف » يتأمل عينيها ، وأنفها ، وشعرها .. وهو يهمس لنفسه : **« أجل ، انها هى .. ولكن هذه عجوز مماولة ! »**

ورفعت « ماسلوفا » رأسها فجأة ، ورمقت السكرتير – مرة أخرى – فراح « نيكلودوف » يجادل نفسه : « كلا .. لا ، هذا غير ممكن ! » .. ومع ذلك ، فقد أيقن من أنه لم يكن ثمة مجال للشك .. فهذه هى ! .. انها « كاتوشا » بلحمها وشحمها .. « كاتوشا » التى أحبها – فى وقت ما – حبا جما ، حتى انه فكر فى أن يتزوجها ، والتى أغواها – فى نهاية المطاف – ثم لم يلبث أن هجرها .. **نعم ، كانت هى « كاتوشا » !**

كان ذلك قبل أربعة عشر عاما ، خلال الحرب بين تركيا وروسيا ، عندما انضم الى الجيش ، بعد أن سئم – الى أقصى درجات السأم – حياة الفراغ التى كان يحياها فى (بطرسبورج) .. وفى طريقه الى الجبهة ، عرج على عمتيه « مارى » و « صوفى » ، وقضى معهما أياما !

الفصل الثانى

ذكريات .. تثير القلق !

● **كان** ، اذ ذاك ، فى الحادية والعشرين ، يجتاز فترة الدعة والاستسلام للكسل ، التى تعقب عادة أعذب الأحلام ! وكانت تلك هى الفترة التى قدر له فيها - برغم اندفاعه بطبيعته الى الخير - ألا يفعل الا أمورا تستحق اللوم ، وان كانت تناسب الوجود الذى ألفه أفراد طبقته .. كان « نيكلودوف » قد ورث ضيعة صغيرة عن والده . وبدلا من أن يمنحها للفلاحين - كما كان يعتزم - وجد نفسه قد استدان مبالغ كبيرة ، بددها فى الميسر ، مما اضطره لبيع الضيعة كى يسدد ديونه . وفى هذه الفترة أيضا ، انخرط فى سلك الجندية ، بالرغم من أنه كان يعتبر الحرب أبشع مبتكرات الانسان . **ووجد نفسه فى تلك الفترة - فترة الانهيار الخلقى - يقضى أسبوعا عند عمتيه ، وهو فى طريقه الى جبهة القتال .. وفى بيتهما ، التقى بكاتوشا ، الفتاة الطاهرة البريئة ، التى لم يكد يراها حتى هام بها حبا ، وفكر جديا فى أن يتزوج منها ، ويعيش معها فى سلام حتى آخر أيام حياته ..**

ولكنه لم يفعل شيئا من هذا .. فقد أغوى « كاتوشا » ، ثم هجرها .. وانتهى الأمر ! ذلك لأن كيانه كان يضم دائما شخصية مزدوجة !.. كان يعيش فى أعماقه - وفى آن واحد - شخصان متناقضان تمام التناقض : الأول عاطفى ، لا ترى عيناه الا مايحقق سعادته وراحته ، فهو انسان هانىء بالحياة ، مستسلم قلبا وقالبا للعواطف التى تستحوذ عليه !.. أما الآخر ، فكان - على النقيض - انسانا متعنتا مع نفسه ومع الغير ، ينشد كمالا خلقيا يهفو اليه بكل عقله ونفسه . وكانت هذه الشخصية المزدوجة أكثر وضوحا فى الماضى ، قبل أربع عشرة سنة ، عندما وقعت هذه المغامرة البشعة التى نسيها

أو كاد .. واذا كان قد نسيها ، فانما ذلك لأنه كان يخشى مجرد التفكير فيها ، لبشاعتها ..

وها هى ذى تتكشف له بكل أبعادها ، فى قاعة المحكمة !

جرى كل ذلك فى فترة لم يعد فيها « نيكلودوف » قادرا على أن يحيـا حبيس الدائرة الضـيقة .. دائرة أفكاره وأحاسيسه ، فلم يقاوم التيار الذى عذبه ــ فى نهاية الأمر ــ وألجم ضميره ، ليتكيف مع أفكار الناس وعواطفهم ومشاعرهم .. **لم يعد يسـأل نفسـه ــ فى تلك الآونة ــ ان كان تصرفه صوابا أم خطأ ، فما عاد هذا يهمه فى شىء ، اذ أنه قرر نهائيا أن يفعل ما يفعـله الآخرون ، وأن يعيش كما يعيشون .. فاستسلم للتيار بعد أن أعيته المقاومة !**

وعنـدما عاد « نيكلودوف » من الخارج ، أقام فى (بطرسبورج) محاطا بأصدقائه الارستقراطيين . واذ أيقن من موافقة أمه ــ أو تسامحها على الأقل ــ أخذ يتذوق كافة ألوان اللهو والعبث ، التى كانت الحياة فى مجتمعه تهيئها له .. وبهذه الحدة ــ التى كانت تميز جميع ألوان نشاطه ــ أقبل على حياته الجديدة بكل نفسه وكيانه ، دون أن تراوده أية ذكرى للمثل الأعلى الذى كان ينشده من وقت قريب . **حتى ليمكن أن يوصف بأنه لم يعد نفس الرجل الذى كانه !**

وفى هذه الحالة النفسية ، قرر « نيكلودوف » ــ ذات يوم ــ الالتحاق بالجندية ، والسـفر الى الجبهة .. كان الجميع قد فعلوا ذلك . ولما كان مسلكهم هذا واضحا ، فانه لم يجد مبررا لأن يتصرف على نحو آخر .

● ●

● **وفى طريقه** الى المدينة ، التى رابطت فيها كتيبته ، عرج على ضيعة عمتيه لزيارتهما ، لا سيما أن عمته الكبرى كانت «اشبينته» فى العماد أيضا . وكان حين زارهما فى العام السابق ، قبل أن يسافر الى الخارج ، فى حالة نفسية مختلفة تماما .

وفى تلك الأيام – التى قضاها فى ضيافة عمتيه اللطيفتين ، الرائعتين – كان ذهنه عامرا بأجمل الأحلام .. بأحلام كانت تبدو للجميع – فيما عداه – مستحيلة التحقيق !

تلك الأحلام راودته بعد تركه المفاجىء للجامعة مباشرة .. فى الوقت الذى بدأت تدب فيه الخلافات – الى حد ما – بينه وبين والدته ، اذ أفضى اليها بعزمه على ألا يعيش من ثمار كد الفلاحين .. فقد كان يرى أنهم يتعبون ويشقون من أجل سادة الأرض ، وليس من أجل أنفسهم وعائلاتهم !

وعندما وصل « نيكلودوف » الى الريف – عند عمتيه – وراقب حيـاة الفلاحين وسادتهم فى واقعها – وليس نظريا فحسب – أصبح أكثر اقتنـاعا منه فى أى وقت مضى ، بأن امتـلاك الأرض يؤدى بالضرورة الى اسـتعباد الفـلاح .. كانت هذه الأفكار من الجـدة والوضوح – بالنسبة اليه – بحيث بدا تحقيقها سـهلا ميسـورا ، الى درجة جعلت « نيكلودوف » يقضى كل فترة اقامته – عند قريبتيه – فى حال من النشوة والحماس . ولكنـه لم يحاول أن يحمـل عمتيه على اعتناق مذهبه الجديد ، اذ كان يعتبرهما أصـدق مثالين لعهد مضى .. وقنع بالكتابة عن هذا الموضوع الى « هنرى جورج » العـالم الانجليزى والمصـلح الاجتماعى المشهور ، الذى كان « نيكلودوف » مكبا على ترجمة مؤلفاته الى الروسية . كما انصرف الى دراسته الخاصة للموضوع ذاته ..

تلك كانت – بالنسبة له – فترة صدق ونقاء ، مفعمة بالصفاء والغبطة !

كان الربـيـع وقتئـذ ينشر اشراقه على الكون .. وكان « نيكلودوف » يستيقظ مبكرا – عند الفجر غالبا – فيذهب للسباحة والاستحمام . وما ان يعود ، حتى كان يجلس الى منضدته ليواصل التأليف ، ثم يتناول فطوره مع عمتيه ،

ويذهب فى نزهات طويلة على الأقدام ، أو على صهوة جواد .. فاذا عاد كان يدرس اللغة الايطالية ، ويقرأ ويكتب ، ويفكر فى غوامض الكون تفكيرا عميقا .. كانت هذه الفترة ـ بدون شك ـ أحلى فترات حياته .. الفترة التى ظل يتذكرها مرارا بحنين وشوق .

ولكن شيئا آخر غير هذا ، كان يضفى على اقامته قبل الأخيرة ـ فى الريف ـ فتنة خاصة .. هذا الشىء تمثل فى « كاتوشا » ، الشابة اليتيمة ، التى تركتها والدتها وهى صغيرة ، فالتقطتها عمتاه . ولقد قامت بينه وبين الفتاة المتبناة علاقات فيها شىء من الحب وشىء من اللهو !

كانت « كاتوشا » فى السابعة عشرة من عمرها ، اذ ذاك .. نحيلة القوام ، رقيقة ، خفيفة الخطى ، ذات عينين فى سوادهما وميض براق .. وكانت تقوم فى منزل عمتى الأمير « نيكلودوف » بأعمال غير محدودة . وقد حدث فى يوم عيد الصعود ، أن حضرت احدى الجارات للزيارة مصطحبة ابنتيها وابنها ـ الذى كان وقتئذ طالبا ـ ورساما شابا كان مقيما عندها . واتفق الشباب على اللعب ، وكانت « كاتوشا » خفيفة كالريشة ، لا تمكث لحظة فى مكان واحد ، وسرعان ما تمسك بمن تلاحقه . وعلى الرغم من أن « نيكلودوف » لم يكن يقل عنها سرعة ، وقد أراد أن يظهر براعة وتفوقا ، فانه وجد عناء فى التغلب عليها !

وصاح الرسام ، الذى كان ـ هو الآخر ـ سريع الجرى : « يا لهما من اثنين لا يمكن اللحاق بهما ! »

وصاح اللاعبون وهم يصفقون ثلاث مرات : « هيا ! واحد ، اثنان ، ثلاثة ! »

وأمسك « نيكلودوف » بيد « كاتوشا » القوية ـ التى كانت محتفظة بجمالها ، برغم ما تركه العمل عليها من خشونة ـ فضغطت هى الأخرى على يده بقوة .. وأخذت

« جونلات » كاتوشا المنشاة ترتطم بعضها ببعض ، فتحدث حفيفا تحت ثوبها الوردى المصنوع من القطن المنقوش ، وهى تجتاز المكان بسرعة البرق .. وانتظر « نيكلودوف » الوقت المناسب ، ليندفع بدوره فيسبق الرسام ، الذى كان يجرى بأقصى سرعة وقد مال بأعلى جسمه الى الأمام ، بينما أخذ شعره يتطاير فى الهواء ..

وبدون أن ينتبه الى أن الرسام قد توقف فجأة عن الجرى ، راح « نيكلودوف » يعدو - وكأنه يطير - وقد أسكره شبابه وسرعة السباق ، وتعلقت عيناه بثوب « كاتوشا » الوردى ، وساقيها اللتين شابهتا الجناحين ، اذ كادتا تطيران بها !.. كانت تجرى بسرعة لا تتيح لأحد أن يلحق بها .. وفجأة ، أومأت له برأسها ، ليقف وراء احدى شجيرات « الليلا » ، بيد أنه دار حول الشجيرة ، بغية لقائها فى مكان أبعد من ذلك ، برغم أنه فهم الغرض الذى رمت اليه بايماءتها .. وواصل الاثنان العدو ممعنين فى الابتعاد ، وقد استشعرا غبطة ونشوة لفرط سرعتهما وخفتهما ، غير حافلين برفاقهما الذين أخذوا يتخلفون وراءهما تباعا !

ولم يتوقفا الا وراء مجموعة صغيرة من الأشجار ، على بعد كبير ، وقد فهم كل منهما ما كان الآخر يبتغى .. توقفا ومدا أيديهما فى حركة تلقائية . ولم يرهما أحد ، فقد تركا باقى المجموعة وراءهما بعيدا .. مدت « كاتوشا » يدها اليمنى لنيكلودوف - بينما كانت اليسرى تصلح ضفيرتها الغزيرة - وهى تبتسم وتلهث ، وقد راح صدرها يعلو ويهبط ، وعيناها الوضاءتان تلمعان ببريق شديد .. **وضغط « نيكلودوف » يدها بين يديه بشدة ، وقرب وجهه من وجه الفتاة بحركة غريزية ، دون أن يدرك كنه الاحساس الذى دفعه الى هذا السلوك .. ولم تبتعد الفتاة ، بل حذت حذوه ، مبتسمة له .. ثم تبادلا قبلة !**

وصاحت الفتاة خجلا ، وقد ازداد احمرار وجهها الوردى الجميل ، الذى تناثرت عليه قطرات من العرق ، ثم ابتعدت عن زميلها بعد ذلك بحركة سريعة ، تاركة اياه بغتة ، وفرت بسرعة . وفيما هى تجرى ، اقتربت من شجرة « ليلا » أخرى ، فانتزعت منها فرعين راحت تضرب بهما وجهها ، وقد التفتت برأسها — فجأة — ناحية « نيكلودوف » .. وواصلت الجرى لتلحق بباقى اللاعبين .

● ●

● **وهكذا** بدأ عهد جديد فى علاقتهما .. عهد رائع لا يشبه أى عهد آخر . وأدرك الاثنان أن ثمة شيئا فريدا ، له سحر لا يوصف ، قد نشأ بينهما . ومنذ ذلك الوقت ، بدأ كل منهما يحس بوجود الآخر فى أى مكان يكون فيه ، مهما يكن هذا المكان .. واذا صادف أن دخل أحدهما حجرة ، وكان الآخر بها ، فان كل ما حولهما كان يتغير فى الحال بأعجوبة .. واذا لم يقدر للواحد منهما أن يرى الآخر الا عن بعد ، فانهما كانا يتبادلان النظرات ، فيجدان فيها الكفاية ، اذ أنها كانت ترقى بهما الى قمة السعادة .. **ولكن ما ان كانا يلتقيان على حدة — فجأة ، وعلى غير توقع — حتى كان يتولاهما شعور غريب ، هو نوع من الحرج والارتباك ، لم يكن ينبعث عن الخجل ، بقدر ما كان ينبعث عن الخوف .. كانت الدماء تتصاعد اذ ذاك الى وجهيهما ، والكلمات تتعثر على شفاههما .. هذا ، اذا حاولا الكلام ، فالواقع أن حديث نظراتهما كان يطغى على كل ما يمكن أن تنطق به الشفاه !**

وذات يوم ، قابل « نيكلودوف » كاتوشا ، وهى تمسك بيدها كتابا أثار اهتمامه الشديد .. كان الكتاب يحتوى على مجموعة قصص لتورجنيف . وكان « نيكلودوف » — فى تلك الآونة — مشغوفا بدستويفسكى بوجه خاص ، فحملها على أن تقرأ رواية « الجريمة والعقاب » .. ومرة أخرى ،

استغل فرصة زيارة قام بها أحد الفلاحين — ليرجو العمة « مارى ايفانوفا » الافراج عن بقرة له ضلت الطريق ودخلت حديقة سادته — فأخذ ديميترى يعرض على « كاتوشا » بعض آرائه السياسية . بيد أن احساسا داخله — دون أن يدرى مأتاه — أوحى اليه بأنها لم تكن تأبه لنظرياته ، بل انها — على العكس — كانت تقاسم عمتيه آراءهما . ولعله كان من الممكن تبرير ذلك — من ناحية — بعدم قدرتها على تقدير القيمة الحقيقية لآراء الشاب ، الذى كان وجهه يتضرج ، وعيناه تغضان النظر ، والكلمات تختنق فى حلقه ، وهو يتكلم !

● ●

● **وكان** « نيكلودوف » قد قرر باصرار — منذ وقت طويل جدا — ألا يتزوج الا من فتاة يحبها حبا صادقا . ولما كان قد اعتقد — اذ ذاك — أنه أحب « كاتوشا » حبا شديدا ؛ فان فكرة الزواج بها لم تروعه ، بل انها كانت — على العكس — تملأه فرحا وسرورا .. كان يدرك أن هذا خليق بأن يحزن أمه وعمتيه ، ولكن ما حيلته ؟.. كان عليه أن يحزم أمره فى قرار نهائى ، ما دام الموضوع يتعلق بسعادته طوال حياته .

وأخذ يسائل نفسه : « ما دمت أحبها ، وهى من ناحيتها تحبنى ، فلماذا أتردد فى الزواج منها ؟ » .. صحيح أنه ما كان يعتزم الزواج فى الحال ، فما كان من الحكمة أن يعقد قرانه فورا ، اذ كانت لديه — فى تلك الآونة — أعمال كثيرة أخرى ، لا بد من انجازها ، منها : السفر الى الخارج أولا ، ثم اتمام مؤلفه ونشره ، وأمور غير ذلك ..

ولكن ، لم لا يتزوجها فيما بعد .. بعد فترة من الوقت ؟

وهكذا غادر ضيعة عمتيه ، وسافر الى الخارج ، دون أن يكون قد اتخذ أى قرار ، ودون أن يكون قد فاتح « كاتوشا » فى الموضوع .. وهكذا — أيضا — لم يقدر له أن يرى الفتاة ، الا بعد ذلك بثمانية عشر شهرا ، عندما عرج على ضيعة

عمتيه – وهو فى طريقه الى الجبهة – وأقام معهما أياما ..

وفى هذه الزيارة القصيرة ، حدثت تلك المغامرة البشعة !

.. استقبلته عمتاه – اللتـــان كانتا تحبانه الى درجة العبادة – استقبالا لطيفا لا سبيل الى نسيانه .. اذ أنهما لم تكونا تريان فى ابن أخيهما من عيب ، سوى أنه لم يلتحق بالجيش ، وسوى أنه ظل خاملا ، كسولا ، الى حد كان يخجلهما أمام معارفهما .. **أما وقد انخرط فى كتيبة من أكثر كتائب الجيش ارستقراطية ، فقد تغير الأمر تماما .. فضلا عن أنه – حين زارهما – كان مسافرا الى الجبهة ، ومعرضا للموت .. أو للاصابة على الأقل !.. وعلى الرغم من قلقهما الشديد عليه ، فانهما أقرتا – من صميم فؤاديهما – هذا العمل النبيل الذى قام به ابن أخيهما الحبيب . ولهذا احتفتا به أيما احتفاء ، واحتضنتاه والدموع تترقرق فى أعينهما ، وأخذتا تلحان عليه أن يقضى عندهما أسبوعا ، صادف أنه كان ((أسبوع الآلام)) .** ولقد سر ((نيكلودوف)) – هو الآخر – لرؤية العجــوزين ، واغتبط كل الاغتبـــاط لفكرة بقائه للاستجمام أياما ، فى ذلك المسكن الذى كان يحمل له دائما أعذب الذكريات .. ولكن اقامته فى الريف – فى هذه المرة – كانت مختلفة عن سابقتها .. اذ كان قد تغير فى خلال الشهور الثمانية عشر تغيرا كبيرا ، حتى لقد أصبح من الصعب التعرف عليه .

ومع أنه لم يكن قد تخلى تماما عن نظرياته السابقة ، فان هذه النظريات انزوت فى مؤخرة أفكاره ، وقد طرأت عليها تعديلات وتغييرات نبعت من هموم الحياة وتقلباتها .. أجل ، لم ينبذ ((نيكلودوف)) مبادىء المصلح الاجتماعى ((هنرى جورج)) ، ولكنه رأى أن الوقت لم يحن بعد لتنفيذها . وفضلا عن ذلك ، فقد أصبح يعتقد أنه غير قادر على انجاز مثل هذا العمل النبيل .

وفى الوقت ذاته ، أصبحت علاقاته بالنساء مختلفة . كان يرغب بدون شك فى أن يتزوج من الفتاة التى أحبها ، ولكن .. ماذا كان يملك ورغبته هذه تصطدم بظروف غير ملائمة ؟.. فما كان هذا بالأمر الذى يقدم عليه انسان من طبقتــه ، اذ أنه كان كفيلا بأن يؤدى الى ضياع مستقبله ، والى احداث قطيعة تامة بينه وبين أمه وأهله .. بل قطيعة بينه وبين كل أفراد طبقته .. وسواء شاء المرء أو لم يشأ ، فقد كان مضطرا الى أن يعيش كما يعيش الجميع .. ولهـــذا عاش ـ سواء فى الخارج ، أو فى (بطرسبورج) ـ كما يعيش سائر الناس !

● ●

● **كان** « نيكلودوف » فى هذه الحالة النفسية ، عندما حضر الى (بانوڤو) ـ ضيعة عمتيه ـ وقد توقع أن تكون اقامته ممتعة ، بفضل وجود « كاتوشا » .. لا لأنه كان يفكر فى اغواء الفتــاة ، فالواقع أن هذا لم يخطر له ببال .. بيد أن الفرح كان يملأ قلبه ـ برغم كل شىء ـ لاحتمال رؤية الفتاة مرة أخرى ، والظهور أمامها وهو فى قمة أناقته ، فى بزة الضباط ، وقد ارتسم على وجهه هذا الشارب الصغير ، الذى كان يبرز لون بشرته . وما ان دلفت العــربة الى الفنــاء المفضى الى البيت ، حتى أخذ « نيكلودوف » ينظر فى كل اتجاه ، وهو يتحرق شوقا لرؤية « كاتوشا » . ولكنه لم يرها عند الباب الرئيسى ، ولا عند باب الخــدم .. وهرع لاستقباله خادم عجوز ، اقتاده للحجرة التى جهزت خصيصا من أجله ، وأخذ يبذل مافى وسعه لخدمة السيد . **وعندما ذهب « نيكلودوف » ـ بعد ذلك ـ الى حيث كانت عمتاه ، ولم يجد كاتوشــا بالقرب منهما ، انقلب مزاجه فجأة ، وشعر بأن هذه الزيارة كانت ضربا من الغباء !.. وعند ذلك ، أدرك أن « كاتوشا » كانت عزيزة عليه فوق ما كان يخال .. وأراد أن يسأل عنها ،**

ولكنه شعر بأن هذا لم يكن من الحكمة فى شىء .. وأخذ – وهو يجيب عن أسئلة عمتيه بذهن شارد – يرمق الباب ولا يحول عنه نظره ، وقد راح يسائل نفسه : « أمن الممكن ألا تكون كاتوشا هنا ؟.. ولكن ماذا حدث لها اذن ؟.. ما أشد أسفى ، لو قدر لى ألا أراها ثانية ! »

ولكنه ما لبث أن سمع خطوات شابة خفيفة ، على مقربة منه . وفجأة اكتسى الكون بنور ساطع ، ودخلت « كاتوشا » ! ولكنها لم تكن – فى هذه المرة – ترتدى ثوبا ورديا ، بل كان ثوبها أزرق مخططا تعلوه مرولة بيضاء أنيقة .. واذا لم تكن « كاتوشا » قد كبرت – فى هذه الحقبة من الزمن – فانها دون شك قد ازدادت جمالا ، على أقل تقدير ! وقد ظلت عيناها السوداوان البراقتان ، تحتفظان بنظراتهما الرقيقة الساحرة . واذ رأت « كاتوشا » الزائر ، تضرج وجهها ، وأقبلت تحييه هاتفة : « أهلا بك يا ديميترى ايفانوفتش ! »

– صباح الخير يا « كاتوشا » .. كيف حالك ؟

– الحمد لله ، اننى فى أحسن حال .

ثم أردفت ، وهى تتحول نحو العمة مارى : « لقد كلفتنى ماتوشكا أن أشكرك . انها الآن أحسن حالا ، وتطلب قليلا من ملح النوشادر ، اذا كان هذا ممكنا » .

– أعطيها قليلا منه ، ان كان لدينا .. هل القهوة معدة يا كاتوشا ؟

– سأقدمها حالا !

ورمقت « نيكلودوف » بنظرة أخرى ، ثم خرجت من الحجرة والاحمرار لا يزال يكسو وجهها .. وبالرغم من أن « كاتوشا » كانت تتكلم عن ملح النوشادر ، وعن شخص مجهول ، **فقد خيل الى « نيكلودوف » أنها لم تقل الا شيئا واحدا : « اننى سعيدة بزيارتك .. اننى سعيدة جدا ، فأنا أحبك ! »**

نعم ، لم تكن « كاتوشا » قد تغيرت فى شىء ، ولكن

« نيكلودوف » كان قد تطور ، فلم يعد الشاب البرىء الذى كأنه قبل عامين تقريبا .. اجتاز الفترة الحرجة ، التى كان يرفض خلالها أن يفعل ما يفعله الجميع ، ويتشبث بألا يطيع سوى ضميره فقط .. لذلك فان « كاتوشا » لم تعد - فى تصوره - تلك المخلوقة الغامضـة ، التى كان يشـعر نحوها من قبل بنوع من الاحترام ، والخشوع .. وانما أصبحت - بالنسبة اليه - مجرد امرأة ، ولا أكثر من ذلك .. أصبحت واحدة من أولئك النسوة اللاتى يعرفهن جيدا ، لأنه كان يراهن عن كثب !

ووقر فى ذهنه أنها خادمة عمتيه اللطيفة ، التى يستطيع أن يلهو معها ، وأن يلعب .. بل ربما جاز له أن يذهب الى أبعد من ذلك ! .. وما كانت هذه الفكرة - فى الواقع - فكرة طيبة ، ولكن .. ولكننا لسنا ملائكة ، على أية حال .. أليس كذلك ؟.. ومع هذا ، فقـد كان « نيكلودوف » يدرك بجلاء أن بينه وبين « كاتوشا » شىء ذو معنى أكبر من هذا الذى يصبو اليه !

وقصارى القول ، ان « نيكلودوف » اعتقد - منذ اليوم الأول - أنه أحب الفتـاة حبا عنيفـا . كان الثوب الأزرق المخطط ، الذى تعلوه المرولة البيضاء ، يلف قوامها الـذى ازداد جمالا بمرور الزمن .. وكان شعرها الأسود النـاعم مجدولا فى ضفيرة غزيرة .. وأصبحت تكسو خديها - فى أحيان كثيرة - حمرة جذابة ، بينما أخذت عيناها الخلابتان البراقتان - بما لهما من حور خفيف - تضفيان على وجهها فتنة بالغة ، لا سيما حين كانت تبتسم ابتسامتها المشرقة ، فتكشف عن صف رائع من الأسنان البيضاء . على ان ما كان يأسر « نيكلودوف » - بسلطان مطرد - تمثل فى ذلك الطهر النقى ، والبراءة الساذجة ، اللذين تجلى خلالهما ذلك الحب الكامن فى كيانها !

أجل ، أحس « نيكلودوف » ـ منذ اليوم الأول ـ بأنه أحب « كاتوشا » .. ولكن حبه ـ فى هذه المرة ـ لم يكن كحبه فى العام الماضى .. لم يكن كذلك الحب الذى يفرض ارتباطهما مدى الحياة .. كلا ، لم تعد المسألة مسألة زواج ! .. كل ما فى الأمر أنه أيقن من أن داء الحب قد أصابه ، فتقبله باستسلام غريزى ، دون ما تفكير فى العواقب .. **فقد آثر أن يغمض عينيه عن العواقب ، لأنه كان ـ فى تلك الحقبة ـ قد دخل المرحلة التى بدأ فيها ينساق لفكرة أن يتصرف كما كان يتصرف سواه ، دون ما حاجة الى جدال أو تفكير . فاستيقظ فيه ـ فجأة ـ ذلك الشخص النهم للحياة ، الذى لا ترى عيناه الا كل ما يحقق له المتعة ، وشرع يتأهب ليسحق الفتى الطاهر الخجول الذى ينشد المثل العليا ، والذى يشاطره نفس « نيكلودوف » وكيانه .. تأهب الشخص النهم للحياة والمتعة ، ليصبح السيد الأوحـــد المســيطر على نفس « نيكلودوف » !**

ولقد كان الشاب يدرك عن يقين أن ليس له ما يفعله عند عمتيه ، وانه لم يبق له ـ فى هذه الظروف ـ سوى أن يبارح (بانوڤو) بأسرع ما كان فى وسعه .. غير أنه أبى أن يفكر فى الرحيل ، وآثر أن يمكث لكى يرى « كاتوشا » ويبقى بالقرب منهـا .

● ●

● وفى مساء السبت المقدس ، حضر أحد القساوسة ليقيم الصلاة .. وذهبت « ماتريونا پاڤلوڤنا » ـ وصيفة « مارى ايڤانوڤا » ـ الى الكنيسة ، لتبارك الخبز المعد لعيد القيامة . وعندما علم « نيكلودوف » أن « كاتوشا » تعتزم مرافقة الوصيفة العجوز ، قرر أن يذهب هو الآخر الى الكنيسة !.. وطلب من عمتيه جوادا ، ليحضر قداس الفجر .. وكان

الطريق وعرا ، تتراكم فيه الثلوج والمياه ، والوحل .. ووصل « نيكلودوف » الى الكنيسة مبكرا ، فجلس فى الركن الذى أوى اليه بعض أعيان البلدة ، كما جلست فيه « ماتريونا پاڤلوڤنا » و « كاتوشا » .

وكانت الطقوس الأولى قد انتهت لتوها ، وأوشك القداس الأول على الابتداء . وظهر مطران من وراء المذبح ، يحمل بيديه شمعدانا ذا ثلاثة أفرع ، وأخذ يرتل ترنيمة « المسيح قام » .. وسرعان ما امتزجت أصوات المرتلين بأصوات الشمامسة ، فشاع فى المكان جو لا مثيل له .. كان كل شىء جميلا ووقورا : فالقس فى ملابس كهنوتية لامعة ، والشمامسة وخدام الكنيسة فى ثيابهم التقليدية ، والمرتلون من أبناء الشعب فى ثياب العيد .. والأناشيد تبعث على الانشراح ، والبركات تفيض على المصلين ، والشمعدانات والثريات مزدانة بالأشرطة الجميلة الألوان ، وكافة الحضور فى أجمل زينة .. فالشعور منسقة ، والأقمصة بيضاء ناصعة ، والسترات الجديدة تلتف حول الخصور بأحزمة ظاهرة ..

كان هناك ملاك الأراضى وزوجاتهم وأولادهم ، وعمدة البلدة ، وعامل البرق ، ورئيس الشرطة الريفية .. كل منهم أجمل مظهرا من الآخر ، **ولكن « كاتوشا » كانت أجمل الجميع دون شك ، بثوبها الأبيض ، وحزامها الأزرق السماوى ، والشريط الوردى الذى كان يزين شعرها .. وكانت ترى « نيكلودوف » دون حاجة الى أى التفات . ولقد شعر الشاب بأنها ترمقه أثناء مروره بالقرب منها ليذهب نحو المذبح** .. وبالرغم من أنه لم يكن ثمة ما يقوله لها ، فقد تذرع بحجة ما ، ليهمس فى أذنها : « لقد قالت عمتى مارى انها لن تختم صيامها الا بعد القداس الأخير ! » .. وتصاعدت الدماء الشابة فى الوجه الفاتن ــ كما أصبحت العادة فى وجود « نيكلودوف » ــ وتسمرت عينا الفتاة السوداوان المتألقتان

على الشاب ، وأجابت . . لمجرد أن تقول أى شىء : « حسنا ! »
وفى هذه اللحظة ، احتك بالفتاة أحد الشمامســة ، وهو يشق طريقا وسط الجمع المحتشد ، ليتخذ مكانه فى الصف بوقار . **ودهش الأمير لغباء هذا الشماس ، الذى لم يدرك أن « كاتوشا » سيدة كل من فى هذا المكان ، بل سيدة العالم بأسره . . ان « كاتوشا » فوق الجميع ، وملكة الكون ومولاته وبهجته !**

وانتهى القـــداس الأول . . وما أن بدأ الفـــلاحون والقساوسة يتبادلون قبلة العيد ، حتى غادر « نيكلودوف » الكنيسة . . وانحنى له بعض من كانوا فى طريقه ، وحيوه . وتوقف عند المدخل ، فأحاط به الشحاذون . . ووزع عليهم بعض المال ، وهو مضطر الى أن يرضى الجميع . وما لبثت « ماتريونا پاڤلوڤا » و « كاتوشا » أن خرجتا ، ومرتا أمامه ، ثم وقفتا فى الفناء . . وكانت الشمس قد ارتفعت فى السماء ، وأشعتها المائلة تنثر مساحات من الضوء تتراقص على وجه البرك والجليد ، هنا وهناك . . وتجمع الفلاحون والفلاحات — فى أجمل زينتهم — فى ميدان الكنيسة ، يتبادلون قبلات عيد القيـامة ، ثم توجهـوا نحو المقبرة المجـاورة ، لزيارة قبور ذويهم . واستوقف طباخ « مارى ايڤانوڤا » الشيخ وزوجته « نيكلودوف » ليقدما له بيضة — من بيض عيد القيـامة — ويقبلاه كما تقضى التقاليد . . وتبع الخادمين العجوزين مباشرة فلاح ، اقترب بدوره من « نيكلودوف » ليقبله هو الآخر قبلة العيد ، وقد بدت على وجهه أمارات الفرح .

وقال الفلاح وهو يقرب شفتيه الباردتين من وجه الأمير : « لقد قام المسيح من بين الأموات » ! . . ثم طبع ثلاث قبلات متتابعة ، بصوت مسموع . . وفى اللحظة التى تلقى فيهـا « نيكلودوف » القبـلات والبيضـة الملونة من الفلاح ، ألقى نظرة على « كاتوشا » فاذا أحد الشحاذين يقترب منهـا .

والتقطت الفتاة من كيسها شيئا أعطته اياه ، ثم قبلته ثلاث مرات .. وقال « نيكلودوف » فى نفسه : « يالها من فاتنة ! » ثم اتجه نحوها ، وليس فى نيته أن يقبلها القبلة التقليدية .. فما كان يبغى سوى أن يكون قريبا منها على قدر المستطاع !

وصاحت « ماتريونا » ، وهى تجفف فمها بمنديلها : « المسيح قام من بين الأموات ! »

ورد نيكلودوف : « حقا ، لقد قام ! » .. وقبلها . ثم تحول نحو « كاتوشا » ، فاحمر وجهها ، واقتربت منه ، وقالت : « المسيح قام يا ديميترى ايڤانوفتش » .. فرد التحية : « حقا ، لقد قام ! » .. وبعد أن تبادلا قبلتين ، توقفا وكأنما ساورهما هاجس ما ، ثم ابتسما معا ، وتبادلا قبلة أخرى !

وقال ديميترى : « ألن تذهبا الى القساوسة ؟ »

ــ كلا ، سنبقى هنا يا ديميترى ايڤانوڤتش ، فنحن نريد أن نستريح قليلا .

قالت ذلك بعناء ، وكأنها فرغت لتوها من مهمة سارة ، لا تريد أن تبدد ذكراها .. ثم استنشقت الهواء بكل ما فيها من قوة الشباب ، وركزت على عينيه اشعاع عينيها الصافيتين ، الوديعتين ، العاشقتين .

وفى كل حب يجمع بين شخصين ، تمر دائما لحظة تبلغ فيها العاطفة ذروتها ، فيتلاشى خلالها كل ادراك ، وكل تفكير .. بل وكل شهوة حسية . ولقد عاش نيكلودوف هذه اللحظة ، فى ليلة الأحد المقدس .

وعندما كان يفكر ــ بعد ذلك ــ فى « كاتوشا » ، كانت تلك اللحظة تمحو ما عداها ، مهما كانت الظروف .. فلقد عرف أن « كاتوشا » أحبته ، وفاض قلبه ــ هو الآخر ــ بالحب طوال هذه الليلة واليوم التالى .. وكانت هذه العاطفة هى التى جعلت منهما شخصا واحدا !

الفصل الثالث

الحب الأول

● **وها هو ذا** يراها ـ مرة أخرى ـ على غير توقع ، وقد ارتدت زى المسجونات ، وفقدت اثنتين من أسنانها بفعل أحد عملائها السكارى .. انها هى بعينها ، بالرغم من أنها أصبحت تحمل الآن اسم « لوباشا » ، أو « لوبكا » !

« يا الهى ! يا الهى ! .. ماذا جرى ؟ »

أجل ، وقعت هذه المغامرة البشعة ، فى الليلة التى تلت ليلة الأحد المقدس .. ففى ذلك المساء ، أخذ « نيكلودوف » يرصد حركات « كاتوشا » . **وما ان سمع خطواتها الخفيفة حتى خرج الى الردهة ليقابلها . وراحت تضحك ، وهى تهم بأن تمر ، ولكنه فعل ما كان يمكن أن يفعله أى شخص فى مكانه .. أمسك بالفتاة ولف يديه حول عنقها ، وأراد أن يقبلها !**

وقالت وقد تضرج وجهها : « لا تفعل هذا يا ديميترى ايڤانوڤتش .. لا ينبغى ! » .. وأبعدته بيدها ، بينما كان قد أمسكها من خصرها .

وأفلتها « نيكلودوف » استحياء .. فقد ألفى نفسه ـ لسوء الحظ ـ فى حالة نفسية لم تسمح له بأن يفهم أن هذا الارتباك كان أجمل احساس هز قلبه يوما ما .. واندفع فى اثر « كاتوشا » ليقبلها من جديد .. وطبع على رقبتها قبلة ، فصاحت مأخوذة ، بصوت مرتعش : « ما هذا الذى تفعل ؟ » .. وبادرت الى الفرار بأقصى ما أسعفتها ساقاها .

واذ كان فى (پانوڤو) ضيوف ـ فى ذلك اليوم ـ آثروا أن يقضوا ليلتهم هناك ، فقد سئل « نيكلودوف » أن ينام

فى حجرة غير التى كانت مخصصة له ، لينزل عن هذه للضيوف . وهرعت « كاتوشا » لتعد له مضجعه الجديد . فما ان عرف أنها فى الحجرة وحدها ، حتى تسلل حابسا أنفاسه ، فى خطوات حذرة ، وكأنه مقبل على ارتكاب جريمة ! وعندما استدارت نحوه ، رأى على وجهها ابتسامة حزينة .. وفاتنة فى آن واحد !

وصدمته هذه الابتسامة .. أكان هناك احتمال اذن .. أو فرصة .. لمناضلة الغواية ؟.. وبرغم أن هذا الهاجس تردد فى أعماقه بصوت خافت ، فقد سمعه .. ولكن الرجل الآخر ـ الكامن فى نفسه ـ أخذ يلح عليه ، موسوسا له فى خبث : « الأمر على النقيض .. أنك على صواب ، فاتبع غريزتك ! » .. وطغى هذا الصوت على الهاجس الخافت . وانصاع له « نيكلودوف » ، فضم اليه « كاتوشا » ، وقد أستبد به احساس جديد .. احساس قوى ، طاغ .. واذا الشخص المادى ـ الكامن فى نفسه ـ لا يرفع رأسه على الشخص المثالى فحسب ، بل انه بدأ يسيطر وحده على كل كيان « نيكلودوف » ، فلا يوجهه الا الى السوء . وفى حرص على ألا يفلت « كاتوشا » ، أجلسها الشاب على السرير ،وهو يزداد ـ فى كل دقيقة ـ تحفزا على التمادى . بيد أنه لم يستطع ، برغم كل هذا ، ان يحزم أمره ..

وفجأة ، اقترب شخص ما من الباب ، فترك «نيكلودوف» الفتاة ، وهو يقول لها بصوت خافت : « سأحضر الليلة الى حجرتك .. ستكونين بمفردك ، أليس كذلك ؟ » .. وصاحت « كاتوشا » وهى تبتعد عنه : « كلا ، كلا ، كلا ! .. ما من شىء يحملنى على هذا ! »

ولكن .. كان كل كيانها المرتبك يهتف معلنا موافقتها التامة بجلاء ، بينما كانت شفتاها تنطقان بعكس ذلك !

وكانت « ماتريونا پاڤلوڤنا » قد بلغت الباب ، فى هذه الأثناء .. ودخلت الحجرة . وبعد أن رمقت « نيكلودوف » بنظرة مليئة بالعتاب ، حدقت فى « كاتوشا » شذرا ، ثم أمرتها بالخروج . وأدرك « نيكلودوف » من أسارير العجوز كم كان مسلكه مزريا ! .. كان هو نفسه — فى الواقع — يدرك أنه جدير بالازدراء ، ولكن هذا الشعور الجديد .. هذه الغريزة المنحطة ، التى انحدر اليها حبه القديم للفتاة ، كانت تفرض وطأتها عليه بثقل مطرد .. فأخذ يفكر — فى غير اكتراث — فى الطريقة التى يتبعها لارضاء هذا الشعور !

وظل « نيكلودوف » طوال ذلك المساء عاجزا عن أن يسيطر على نفسه .. كان يوقن بأن شيئا بالغ الأهمية يوشك أن يحدث ، وأنه لم يعد يملك أن يكبح جماح عاطفته . وعبثا حاول أن يرى « كاتوشا » ثانية .. كان من الواضح أنها راحت تتحاشى ذلك ، وأن « ماتريونا پاڤلوڤنا » كانت — منذ فاجأتهما فى الحجرة — تراقب « كاتوشا » عن كثب .. فلم ير الفتاة طوال تلك الأمسية ، فضلا عن أنه اضطر الى البقاء مع ضيوف عمتيه .. ثم انفض هؤلاء ليناموا .. **وكان « نيكلودوف » يعلم أن « ماتريونا پاڤلوڤنا » تلازم عمتيه ، فتوقع أن تكون « كاتوشا » وحيدة فى حجرتها الصغيرة !**

وخرج الى فناء البيت .. كان الليل مظلما ، ولطيفا ، وثمة ضباب خفيف يسبح فى الهواء كالسحاب .. وجرى « نيكلودوف » على الثلج المتجمد ، متجها صوب جناح الخدم ، وقلبه يدق بشدة يكاد معها أن يعجز عن التنفس ، وكأنه ارتكب جريمة بشعة !

وكانت « كاتوشا » تجلس الى منضدتها شاردة الفكر ، جامدة بلا حراك ، تحملق فى الفراغ .. ووقف — هو الآخر — ساكنا خارج نافذتها ، وأخذ يرمقها بنظر لا يحيد ، وهو

يتحرق شوقا لمعرفة ما كانت تفكر فيه ، وما كانت تشعر به .. وظلت « كاتوشا » فترة طويلة فى نفس الوضع ، وكأنها سمرت فى مكانها . ثم رفعت عينيها فجأة ، وابتسمت .. وما لبثت أن نكست رأسها وكأنها تلوم نفسها .. وأخذ « نيكلودوف » ـ وهو لا يتزحزح عن النافذة ـ يتابع كل صغيرة من حركات « كاتوشا » ، وهو يصغى الى وجيب قلبه ، والى الأصوات الوافدة من النهر ، على بعد مائة قدم من المنزل : فهناك ، كانت تجرى عملية بطيئة ، فى اطواء الضباب الكثيف .. كان الثلج يتشقق ، وكانت قطع رقيقة منه تتفكك فى قرقعة ، وتتلاطم بصوت شبيه بارتطام الأخشاب .

وظل « نيكلودوف » فى مكانه ، يتأمل بشغف وجه الفتاة المنحنى على المائدة ، وقد أثقله التفكير والعذاب . وفجأة ، شعر الشاب باحساس من الشفقة يعتصر قلبه ، فارتجف . ثم ارتاحت نفسه لحظة .. على أنه لم يهنأ بهذه الشفقة غير المتوقعة ، بل انه ـ على النقيض ـ خشى أن تثنيه ، فطرق النافذة حتى لا يترك لهذه الشفقة فرصة للسيطرة عليه . وارتعدت الفتاة ، وانقبضت أساريرها !

واقتربت « كاتوشا » بوجهها من الزجاج ، ولكن الفزع الذى تجلى فى عينيها لم يتضاءل ، عندما تبينت الطارق .. ومع ذلك فقد ردت على ابتسامة « نيكلودوف » بابتسامة لاح له انها لم تكن تعبر الا عن الخضوع . وأشار اليها « نيكلودوف » أن تلحق به فى الفناء ، ولكنها لم تجب الا بهزات من رأسها تعلن الرفض . وازداد « نيكلودوف » اقترابا من النافذة .. غير أن « ماتريونا پاڤلوڤنا » دخلت حجرة « كاتوشا » ـ فى تلك اللحظة ـ فاضطر الشاب الى التراجع ..

مشى « نيكلودوف » طويلا فى الضباب ، وهو يستمع الى



« ولكن كاتوشا كانت أجمل الجميع دون شك ، بثوبها الابيض ، وحزامها الازرق السماوى ، والشريط الوردى الذى كان يزين شعرها .. » (ص ٥٢)

هدير النهر وقرقعة الجليد .. تردد ، وهو عاجز عن أن يقرر الرجوع ، أو العودة الى الاقتراب من النافذة . وأخيرا .. وقف بالقرب من النافذة .. كانت « كاتوشا » وحيدة في حجرتها – مرة أخرى – وقد جلست الى المنضدة ، غارقة في أفكارها .

وما ان اقترب « نيكلودوف » من النافذة ، حتى رفعت « كاتوشا » رأسها ، وحملقت فى الظلام .. وطرق « نيكلودوف » النافذة ، فبادرت « كاتوشا » مهرعة ، لاهثة .. وكان فى انتظارها ، فى المدخل ، فما ان رآها حتى أخذها بين ذراعيه ، وقبلها ..

وخرجا معا الى الفناء .. كان « نيكلودوف » يتعذب لعجزه عن ارضاء رغبته .. الرغبة التى انتقلت منه الى « كاتوشا » شيئا فشيئا .. وفى هذه اللحظة ، ظهرت « ماتريونا بافلوفنا » عند عتبة الباب ، ونادت الفتاة ، فانتزعت هذه نفسها من بين ذراعى « نيكلودوف » ، وعادت الى جناح الخدم .

ولم يعدل « نيكلودوف » عما انتواه . وبخفة بالغة ، سار نحو باب حجرة الفتاة ، الملاصقة لحجرة « ماتريونا پافلوفنا » .. وسمع العجوز تتلو صلاة المساء .. وما لبث أن تقدم فى حرص بالغ – حتى لا تحدث أخشاب الأرضية صريرا تحت قدميه – فعبر باب العجوز ، ثم وقف برهة ساكنا – بلا حراك – بجوار باب الفتاة .. ونفخ فى ثقب قفل الباب ، فقفزت « كاتوشا » من سريرها – ولم تكن قد نامت بعد – وتوسلت اليه أن يتركها . وانفجرت تقول : « ماذا تفعل ؟ .. ماذا يحدث لو سمعت عمتاك ؟ » .. وان كانت نظراتها قد راحت تهيب به : **« يا حبيبى ! يا حبيبى ! .. انك لتدرى عن يقين اننى لك ، وان بوسعك أن تفعل بى ما تشاء ! »**

وأخذ الشاب يرجوها – فى الحاح – أن تفتح الباب ، فلم تلبث أن أذعنت .. وبدا كأن الباب قد فتح من تلقاء ذاته !.. وكان « نيكلودوف » يعى أن تصرفه خسيس ، دنىء ، غير أنه كان يدرك كذلك أن الكل يفعلون ما كان يفعل !

واحتواها بين ذراعيه كما وجدها : عارية الذراعين ، وقد ارتدت منامة من صوف خشن ، ثم رفعها عن الأرض ، وحملها .. وأحست « كاتوشا » بملامسة عضلات الذراعين اللتين حملتاها ، وهى عاجزة عن ابداء أقل مقاومة !

وهمست وهى تلتصق بكل بدنها بجسم الشاب : « أواه !.. ما ينبغى هذا !.. ألا دعنى ! »

الفصل الرابع

النــدم

● **هكذا** وقع ذلك الأمر البغيض ..

ولكنه لم يكن بالأمر المزعج – فى ذاته – بقدر ما انحصر الازعاج فى الطريقة التى تصرف بها « نيكلودوف » عقب ذلك : فلقد سافر فى الصباح التالى ، لأن الموعد المحدد لوصوله الى كتيبته ، كان قد فات .. ولأن الكونت « شوينبك » Shoenbek – أحد أصدقائه المقربين – كان قد حضر الى الضيعة ليرافقه ، فسرعان ما رحل الاثنان ..

وهكذا اختفى « نيكلودوف » ، بعد أن أغوى الفتاة التى أحبته . ولم يبد مسلكه – اذ ذاك – طيبا ، ولا بدا سيئا .. لا شريفا ، ولا خسيسا .. فان أنكى ما فى الأمر ، أن « نيكلودوف » نفسه لم يفكر فيه اطلاقا !

وها هو ذا – وهو جالس فى قاعة المحكمة – قد تذكر بجلاء تلك الأفكار والمشاعر التى حاصرته ، فى الأيام الأخيرة من اقامته عند عمتيه .. ثم تذكر – بوجه خاص – الأمسية

التى انطلق فيها مع الكونت « شوينبك » فى مركبة عمتيه ، فى جو فظيع ، وتحت مطر يخالطه البرد فيحجب الرؤية عن الأعين .. وقد اجتازا تسعة عشر فرسخا ـ تفصل بين (پانوڤو) وأقرب محطة للسكك الحديدية ـ فى طريق مليء بالمستنقعات .. كانا يجلسان فى هدوء ، وقد احتميا بالمظلة الجلدية ، من الأمطار التى كانت تضربها بشدة .. وكان كل منهما غارقا فى تأملاته : « نيكلودوف » يفكر فى أن من حسن الحظ أنه أوتى عمتان تعبدانه ، وتشعران ـ فى الوقت ذاته ـ بالسعادة اذ تريانه ذاهبا الى الحرب .. كانتا بدون شك تريانه شجاعا !.. كذلك جال بخاطره أن الكونت « شوينبك » قد حدس علاقته بكاتوشا ، فشعر بقدر غير قليل من الارتياح والرضى .. فلقد قال له صديقه ، عندما أبصر « كاتوشا » لأول مرة :

ـ أرى شيئا من الغرابة فى تعلقك المفاجيء بعمتيك !.. فها أنتذا تتلكأ هنا منذ أسبوع ، على ما أظن .. ومع ذلك فأنت على صواب يا عزيزى !.. لو أننى كنت مكانك ، لفعلت الشيء ذاته .. يا لها من فتاة فاتنة !

وقال نيكلودوف فى نفسه : « انه يحسدنى ، ويظننى ـ هو الآخر ـ رجلا ذا دهاء ! » وبدا من الجلى أن هذه الملاحظات قد سرته .. كما كانت تطربه الأفكار والذكريات التى تفاعلت فى ذهنه ، فيما يتعلق بالحب الرائع ، الفريد من نوعه ، الذى أبدته له « كاتوشا » .. **اما الندم فلم يساوره اطلاقا !.. بقيت فى نفسه ذكرى مؤلمة .. ذكرى اللحظات الأخيرة فى علاقتهما .. تلك اللحظات التى خلت من السحر والشاعرية ، والتى كان يفضل عليها اللحظات الممتعة ، التى قضاها معها فى الكنيسة عند بزوغ الفجر !**

وفكر — بين ما جال بخاطره من أمور عديدة — فى التحاقه بالكتيبة ، والاستقبال الودى الذى يرتقبه من زملاء المستقبل ، اذ يغتبطون لاقدامه على الالتحاق بالجيش العامل ، برغم مركزه .. انه لخليق بأن يظفر بالحب والاعجاب ، لوسامته ، ولحسن منظره فى الزى الرسمى وسرواله الأزرق الضيق ! .. وأيقن من أنه سيمتاز — فى الجبهة — على اقرانه ، وسيعلو عليهم فى الدرجة ، وسيظفر بالأوسمة .. وما أن تنتهى الحرب ، حتى يعود الى العاصمة ، فيقدم استقالته ، ليبين لجميع أصدقائه قلة اهتمامه بهذه المكافآت التى استحقها بتعريض حياته للخطر !

وبطبيعة الامر ، راح يفكر فى « كاتوشا » أيضا . وكان يشعر بالسرور اذ يسترجع اللحظات الممتعة . **اللحظات التى هرعت فيها اليه عند مدخل جناح الخدم .. واللحظات التى أسرته فيها بحبها .. واللحظات التى شهدت استسلامها أخيرا ، عندما تناولت وجهه بين يديها ، وتمتمت شفتاها المرتعشتان : « اننى اوافق على كل شىء من أجلك ، ما دمت أحبك ، يا حبيبى .. اننى أحبك وكفى ! »**

.. كان كل هذا عذبا ولاشك ، ومع ذلك فقد كان هناك شىء ، يعذبه .. مجرد ذكرى صغيرة .. ذكرى تتعلق بالدقيقة الأخيرة التى سبقت رحيله ، عندما نهض عن المائدة ليتأهب للسفر ، فسار فى الممر ليودع « كاتوشا » ، ويدس فى صدر ثوبها مظروفا به بعض المال .

كان ذلك تصرفا مقيتا ! .. أرادت « كاتوشا » — وقد تضرج وجهها ، واستبد بها الارتجاف — أن ترفض المظروف ، ولكن « نيكلودوف » همس لها — وهو لا يقل عنها ارتباكا — بكلمات لعلها كانت : « كلا ، بل خذيه ! » .. ثم رحل فجأة !

● وفى طريقه الى محطة السكة الحديدية ، أخذ يستعرض ـ فى ذهنه ـ كل هذه الأفكار والذكريات . ولكنه لم يكن يشعر بأى ندم على فعلته . فان شخصيته الأخرى .. الشخصية التى كانت مسيطرة عليه عندما أقام فى هذا البيت منذ عامين ، وعندما كان يقرأ مع « كاتوشا » صفحات لتورجنيف ، والتى كانت تبعث الدماء الى وجهه ، وتجعل الكلمات تتعثر على شفتيه اذا ما تكلم عن أمور أكثر جدية مما ينبغى لشخص فى سنه .. هذه الشخصية لم تعد بعيدة عنه فحسب ، بل انه كان قد نسيها تماما !.. كل ما كانت هذه الشخصية تؤمن به ، بصدد العلاقات بين الرجل والمرأة ، أصبحت الشخصية الجديدة ـ التى صار اليها ـ تجهله تماما !

ولهذا ، كان « نيكلودوف » ـ بعد كل ما جرى ـ يعرف انه لم يسلك مع « كاتوشا » سوى المسلك المعتاد .. كما فعل واحد من أعمامه ـ مثلا ـ اذ أنجب طفلا على أثر لقاء عابر .. وكان يدرك أن « شوينبك » ـ الذى أصبح يحسده ـ كان خليقا بأن يفعل فعلته ، لو انه كان فى مكانه .. كانت هذه حال المئات ، بل الآلاف من الرجال ، فى الحياة الواقعية ، وفى الروايات على السواء !

وكان التصرف الوحيد المألوف ـ فى هذه الظروف ـ هو اعطاء الضحية نقودا . وقد بادر « نيكلودوف » فدس فى صدر ثوب « كاتوشا » مائة روبل ، فى لحظة الوداع . وبهذا أصبح بمنأى عن اللوم . أما مستقبل الفتاة ، فلم يكبد « نيكلودوف » نفسه عناء التفكير فيه .. لم يكن يفكر الا فى نفسه ـ وهو يجلس الى جوار « شوينبك » ، فى المركبة ـ طيلة الطريق ، حتى بلغا محطة السكة الحديدية .. بل انه استمر على هذه الحال بعد ذلك .

غير أن شعورا عابرا من تأنيب الضمير ، تسلل الى نفسه ـ ذات لحظة ـ دون أن يفطن ، وعصف به .. فلم تلبث قسوة ايلام هذه النوبة أن طردت تلقائيا ، بعد ذلك ، كل ذكرى للمغامرة !.. **واذا « نيكلودوف » الذى اعتاد ـ فى الماضى ـ أن يكون صادقا مع نفسه كل الصدق ، قد انقلب شخصا هادىء النفس ، مرحا ، بالرغم من أنه فقد الفتاة التى أحبته ، والتى تسبب فى ضياعها مذ اطمأن الى أنها ما كانت لتأبى عليه شيئا ، لفرط حبها اياه !** .. وما أن وضع قدميه فى القطار ، حتى انصرف الى لعب الورق مع أصدقائه .. وما لبث ـ بعد بضع ساعات ـ أن تركهم ، وذهب يتأمل الليل خلال نافذة مقصورته .. واذ كانت المركبة مريحة ، مشرقة بالضوء ، فقد بدا الليل ـ خارج المركبة ـ كئيبا موحشا .. وأخذت قطرات المطر المختلطة بقطع الثلج ترتطم بجدران المركبة ، والماء يسيل على زجاج النافذة ، وان لم يمنع « نيكلودوف » من أن يرى شجيرات وأكواما من الجليد فى الخلاء الممتد على مدى البصر خارج النافذة . **وفجأة ، خيل اليه أن « كاتوشا » تجرى وراء القطار ، فى هذه الصحراء المظلمة ، بين الشجيرات وأكوام الجليد ، باسطة يديها لتلعنه ، اذ أضاع مستقبلها ، ثم ألقى بها كما يلقى بخرقة بالية لم يعد فى حاجة اليها !**

وفجأة ، تذكر بجلاء انه كان قد طرد هذه الفكرة من رأسه ، وأنه نجح فى ذلك بسهولة كبيرة .. وناداه «شوينبك» ، فى تلك اللحظة : « قل لى ، ألن تأتى ؟.. اذا كنت غير راغب فى اللعب ، فهذا أمر آخر ! » .. فبادر نيكلودوف قائلا : « بلى .. اننى قادم ! »

وما ان عاد الى جوار أصدقائه ، حتى كان قد نسى الرؤيا — التى خامرته — تماما .. ولم يعد يتذكرها الا اليوم ، وهو جالس فى المحكمة ، فاذا بها تثير أشجانه .. كانت « كاتوشا » بعينهـا ، هذه المرأة التى كان يراها أمامه ، ملتفة فى معطف المسجونات .. وهى هى التى تراءت — للحظات وجيزة — لخياله المضطرب ، فى الماضى !

لم يكن قد فكر فيها — منذ ذلك الحين — قط .. وعندما انتهت الحرب ، وفى طريق عودته ، عرج « نيكلودوف » — مرة أخرى — على ضيعة عمتيه ، حيث قضى بضعة أيام .. **وهناك علم أن « كاتوشا » لم تعد فى المنزل ، فقد غادرته لتلد فى مكان آخر .. وانهـا — بعد أن وضعت مولودها — انحرفت .. استسلمت لتيار الانحراف !**

كانت هذه — على الأقل — هى الشائعات التى انتشرت عنها . وعندما كلمته عمتاه شخصيا فى هذا الموضوع ، استولى عليه أسى لا يوصف ، وشعر بخجل طاغ ، حمله على أن يقرر بعزم — فى احدى اللحظات — أن يبحث عن « كاتوشا » وطفلها .. ولكنه لم يبذل أية محاولة ، بعد أن انجابت لحظة الانفعال الأولى ، وذلك لسبب بسيط ، هو أن خجله وتأنيب ضميره كانا من القسوة بدرجة دفعته الى عدم العودة للتفكير فى هذا الأمر . وهكذا كف عن التفكير فى ذنبه ، وان لم ينسه تماما !.. وكان هذا أسهل الحلول ! .. غير انه ظل يدرك — فى قرارة نفسه — انه قد ارتكب شرا ، وأظهر قسوة ونذالة .. وازاء يقينه — المستقر فى أعماقه — بأنه قد ارتكب جرما ، فقد أحس أنه غير أهل لأن يحاكم أحدا أيا كان .. بل ولا أن يقابل نظرات الناس اليه !

● ●

● **وكان هذا الحكم ،** الذى راح يصدره على نفسه — من آن الى آخر — يتفق مع النزعات الأخلاقية التى رانت الى

سبات ، فى أعماقه . بيد أن ثمة حكما آخر نهض ليناقضه .. **حكم أهل الوسط الذى كان ينتمى اليه ، فقد كانوا يرون أن لمسلكه ما يبرره .. ليس هذا فحسب ، بل انه كان جديرا بالاطراء كذلك .. فضلا عن أنهم كانوا يبيحون اتخاذ موضوع كهذا مادة للفكاهة ـ كما كان شوينبك يفعل ـ بل مادة للزهو والافتخار !**

ولقد تغلب حكم الوسط ـ منذ البداية ـ على حكم الضمير ، فأخذ « نيكلودوف » يتباعد ـ شيئا فشيئا ـ عن الحياة الصالحة التى عاشها طويلا . كان قد ارتكب دناءة خسيسة ، فلما عزف عن الاعتراف بذلك ، قطع نهائيا كل صلة كانت تربطه بالأخلاق الصالحة . كان ثمة شىء ـ لا سبيل الى مقاومته ـ يطوقه ، فأصبح مقضيا عليه أن يكون عبدا لشهواته مدى الحياة !

ولكن الله شاء أن يلتقى « نيكلودوف » و « كاتوشا » من جديد !.. وهاهو ـ دون سواه ! ـ قد استدعى لمحاكمتها .. هى بالذات !.. ذلك لأن المرأة التى مثلت أمامه ، كانت نفس المخلوقة الوادعة ، اللينة ، الخجول التى استسلمت له ـ فيما مضى ـ باطمئنان وسذاجة ، دون أن تفكر فى شىء ، ودون أن تطلب شيئا !.. ولم يستطع « نيكلودوف » أن يحول بصره عنها ، وقد تمثلت له كما كانت وهما يلعبان معا .. أو وهى تجلس بالقرب منه فى (پانوڤو) ، تصغى اليه وهو يقرأ عليها مؤلفات « تورجنيف » .. **وتصورها عقله المضطرب كما كانت فى الكنيسة ـ ليلة الأحد المقدس ـ مرتدية ثوبا ناصع البياض ، وقد زينت شعرها الأسود بشريط .. ثم تمثلها فى الصورة التى رسمها لها قرار الاتهام ، وهى تطالب بأجرها مقدما ، ثم وهى تواصل احتساء**

« الكونياك » برغم سكرها .. واخذ يتاملها فى معطف السجن الذى كان واسعا فضفاضا ، وقد بدا الارهاق على قسماتها ، وشحب وجهها فى ذبول ، وسقطت اثنتان من الاسنان الأمامية فى فمها ، وبح صوتها !

وقال « نيكلودوف » فى نفسه : « كلا ، كلا !.. هذه ليست الفتاة الرائعة ، اللطيفة ، الساذجة التى عرفتها فى فترة اقامتى الأولى عند عمتى ! »

اذن ، فمن تكون هذه المخلوقة البائسة ، الماثلة أمامه ؟.. أليست هى « كاتوشا » ، برغم اسم « لوباشا » الذى اشتهرت به ؟.. انها « كاتوشا » التى عرفها فى الماضى !.. وفضلا عن ذلك ، فان هذا الحطام البشرى ، الماثل أمامه ، من صنعه هو !.. فلو لم يحدث شىء ، فى تلك الليلة المشهودة ، ليلة الأحد المقدس ، لما قدر لتلك المرأة المرتدية زى المسجونات أن يكون لها وجود هنا ، ولا كان يكون فى ماضيها تجار سكارى ، ولا هذه البشاعة التى تجلل كل كيانها ، من قمة راسها الى أخمص قدميها . وبدأ تفاعل أليم يجرى فى نفس «نيكلودوف»، اذ تجلت له كل قسوة فعلته ، وكل خستها ، وكل دناءتها .. وتهتك ذلك الحجاب الذى أخفى عنه جريمته أكثر من أربعة عشر عاما .. **واخذ يسال نفسه : كيف استطاع ان ينسج هذا الحجاب ، وان يتوارى وراءه ؟!**

من الواضح أن الجميع ـ جميع الرجال دون استثناء ـ يفعلون نفس الشىء .. ولكن هذا ما كان ليغير من موقف « كاتوشا » ، ولو كان الملائكة انفسهم يسلكون المسلك ذاته .. فما كان من سبيل الى تعويض ما خسرته المسكينة .. وهذا الذى خسرته ، هو السبب الوحيد لما آلت اليه ..

وفى الوقت الذى انقشعت فيه الغمامة عن بصيرته ، لم يكن يملك سوى أن يدرك ان المسئولية باكملها تقع على عاتقه هو .. ومن ثم كاد الضيق أن يخنقه ، وقال فى نفسه : « يا للخزى !.. اى عار يلحقنى اذا عرف الناس ذلك ! » .. ولكن تلك الفكرة لم تزد على أن جالت براسه ، وما لبثت أن تلاشت كالبرق ، دون أن تترك أثرا !

« ولكن ، ماذا يهم ؟.. ليكن !.. أن الخزى لن يخجلنى أمام الناس ، بل امام نفسى ، وأمام الله .. امام هذه النفس ، وهذا الاله اللذين كنت أعرفهما فى الماضى ، ونسيتهما فى ضلال الجهالة ! »

وتبين « نيكلودوف » ـ دفعة واحدة ـ كل دنايا حياته وخستها .. كيف هجر المراة التى أحبته ، والتى أحبها هو نفسه ، ورزق منها بطفل ؟.. **كيف ينسى كل هذا ، ويتزوج من امراة اخرى ، ويفيد ـ أعظم الفائدة ـ من سخرة العبيد الذين يفلحون الأرض بعرق جباههم ، ويدعى ـ مع شعوره بهذا الجرم ـ أنه رجل فاضل وذو افكار حرة ؟**

ومن الغريب ان ما حدث فى فترة اقامته الأولى عند عمتيه ـ عندما كانت أمانيه المتعلقة بالحياة الزوجية ، قد امتزجت أقوى امتزاج بأفكاره المتعلقة بالعدالة فى توزيع العمل ، والقضاء على الرق ، ونبذ المكاسب غير المشروعة ـ حدث اليوم أيضا ، فاذا أفكاره المتعلقة بكاتوشا ، تتجاوب مع رغبته فى ان يحقق أخيرا خطة كان قد تمثلها بكل دقائقها منذ زمن بعيد !

وبدا له ـ فجاة ـ أن مشروع زواجه من « آلين » لا يقل جرما عما فعله طوال حياته .. الحياة التى كانت تقوم على استغلال العبيد الكادحين فى أرضه .

« كيف أستطيع أن أتزوج ، وأنا قد تزوجت فعلا ، وها هى ذى زوجتى ماثلة أمامى الآن ؟.. كيف يمكننى أن أكون ذا نفع للبشرية وأنا أنتمى لفئة من أشد الناس اضرارا بها ؟.. »

● ●

● **بينما** كانت هذه التفاعلات الفكرية الأليمة ، تقلب نفس « نيكلودوف » رأسا على عقب ، ظلت اجراءات العدالة ماضية فى مجراها ، تواصل سيرها التقليدى بعيدة عن التأثير .. وبدت تلك العدالة فى نظر « نيكلودوف » ـ وقد تشبعت بأفكار سابقة ، وشكليات لا يقل بعضها عن بعض حمقا وبطلانا ـ أبشع الأمور التى يمكن تصورها ، وأكثرها مسخا وتشويها لكل ما هو معقول ومقدس فى الانسان .. فاذا به ـ وهو اللص الفاسق ، هاتك الأعراض ـ يجلس فى ذلك المكان ، ويستمع الى الشهود ، والى الأسئلة والاعتراضات ، ليحكم طبقا لضميره وعقيدته !.. وهذا الرئيس الغريب الأطوار ، البارع فى الرقص ، لابد أن ضميره مثقل بوزر جرائم عديدة من هذا النوع .. وكل الآخرين ـ سواء المحلفين أو أعضاء المحكمة ـ قد تجمعوا فى هذا المكان ، ليحاكموا أناسا تسببوا هم أنفسهم فى هدم حياتهم !! .. وود « نيكلودوف » ـ فى احدى اللحظات ـ أن ينهض ويغادر القاعة ، ولكنه لم يجد فى نفسه القوة لخرق الجو المهيب ، ولا الشجاعة لازعاج الحاضرين !

واستغرق « نيكلودوف » ثانية فى تأملاته ، بمزيد من التعمق ، فتبين ـ بشىء من الدهشة ـ **ان « آلين كارمالين » الجميلة ، الأنيقة ، الحنون ، قد انمحت من قلبه ، لا لأنها كانت تقل عن « كاتوشا » فى شىء ، وانما لأن كل ما كان يتعلق بكاتوشا كان قد بدأ ياخذ اهمية ومعنى لا يعود ازاءهما وجود لآلين وكل مثيلاتها فى العالم !**

وبقوة ارادة جبارة ، ارتد « نيكلودوف » الى الحالة النفسية التى كان عليها قبل أربعة عشر عاما ، عندما كان حبه لكاتوشا أفلاطونيا .. وبوعى كامل للتحول الذى اعتراه ، لم يدر بعد ما بوسعه أن يفعل .. بيد أن أمرا واحدا بدا له أكيدا ، الا وهو انه لن يكون بعد اليوم سلبيا ، ولا خاضعا للمؤثرات الخارجية ، بل ستغدو حياته ايجابية ، تنبعث حوافزها من نفسه وشخصيته ، وتسير بهدى من صوت ضميره وحده . **وعلى الرغم من أنه لم يكن قد قرر شيئا بالنسبة لكاتوشا والعلاقات التى ستقوم بينهما ، فقد شعر بأنه لابد له من أن يدنو منها – فى أقرب فرصة – وأن يتحدث اليها على انفراد !**

وقال فى نفسه : « ماذا يجرى لو ذهبت فقابلت رئيس المحكمة فى الحال ؟.. ولكن لا ، سيكون من الحمق ان أطلع الجميع على علاقتى القديمة بالمتهمة ، وقد يسقطون أهليتى لمركزى هذا . على أنه لابد من أن أساعدها .. أجل ، يجب أن أساعدها .. هذا هو المهم الآن ! »

واستغرقت القضية وقتا طويلا . فبعد الاستماع الى أقوال الشهود ، ومواجهة هؤلاء بالمحامين والمتهمين ، وبعد الاستجوابات التفصيلية للمتهمين ، أعلن رئيس المحكمة انتهاء الاجراءات ، وأعطى الكلمة للمدعى العام ، الذى انطلق – بلغة متقعرة – يحمل على المتهمين ، لا سيما « كاترين ماسلوفا » . اذ عمل جاهدا على اثبات أنها – عندما ذهبت لاحضار نقود سميلكوف من الفندق – كانت قد عقدت عزمها على سرقته .. بل انها ما اصطحبته الى بيت الدعارة أصلا ، الا لهذه الغاية !

واذ اختتم المدعى مرافعته ، أعطيت الكلمة لممثلى الدفاع مباشرة ، رغبة من المحكمة فى الانتهاء – بأسرع ما يمكن – من

قضية بدا كل شيء فيها واضحا تمام الوضوح .. فتكلم محامى « ايفيمى » أولا ، ثم تبعه محام منتدب ـ من قبل المحكمة ـ للدفاع عن « سيمون ايباتوف » . **وتكلم بعد ذلك محامى « كاترين ماسلوفا » ، وكان شابا حديث التخرج فى كلية الحقوق ، فبذل جهدا كبيرا ـ ولكن بدون حذق وخبرة ـ لاثبات ان موكلته لم تضمر قط اية نية لدس السم لأى شخص .. واذا كانت قد استولت على خاتم ، فانما فعلت ذلك وهى غائبة الوعى بتاثير الخمر .**

وكما كان متوقعا ، لم يترك المدعى العام تلك المرافعات دون رد ، ففند كل الحجج ، اذ كان المتهمون فى نظره ـ لا سيما كاترين ماسلوفا ـ سفاحين وأشقياء خطرين على المجتمع !

وأعطى الرئيس الكلمة ـ بعد ذلك ـ للمتهمين : فتكلمت « ايفيمى » طويلا ، دون أن تقول شيئا جديدا .. واكتفى « سيمون ايباتوف » بأن قال : « لست مذنبا ، ولا يد لى فى الجريمة التى تتهموننى بها ! » .. **وحان دور « كاترين ماسلوفا » ، فارادت أن تقول شيئا ، ولكن قواها خانتها فلم تستطع أن تنبس بكلمة واحدة ، وانهمرت دموعها . وما أن بدأت « كاتوشا » فى البكاء ، حتى عجز « نيكلودوف » عن أن يسيطر على مشاعره ، وبذل جهدا ملحوظا ليكبح دموعه ، حتى أن الجالسين بالقرب منه ، أخذوا يلتفتون نحوه !**

وأخيرا ، لخص الرئيس القضية ، فبدأ بعرض طبيعة الاتهام مرة أخرى ، ثم أوضح كيف ينبغى ادراك معانى وحوافز السرقة والقتل ، وما اليهما .. ولم يغفل ان يسهب شرح واجبات المحلفين ، وما يترتب على قرارهم .

وبالرغم من أن ذلك كله كان مطابقا لما ورد فى سياق الدعوى ، فان الدعوى ذاتها ـ كما بدا لنيكلودوف ـ كانت

تفتقر افتقارا واضحا الى ذلك العنصر الذى كان القضاة يعملون على ابرازه .. كانت خالية من العدالة والتفكير السليم .. خالية من العدالة ، لأنه اذا كان هناك مجرمون فى هذه القضية ، فان هؤلاء المجرمين هم ـ فى المكان الأول ـ أصحاب بيوت الدعارة ، والذين يترددون عليها ، والحكومة التى تعترف بتلك الدور .. **واكثر اجراما من هؤلاء جميعا ، امثال ((نيكلودوف)) الذين يمدون هذه البيوت بالنساء اللائى يعملن فيها !.. غير ان هؤلاء المجرمين الحقيقيين لم يكونوا بمنجاة من المحاكمة فحسب ، بل ان احدا لم يفكر فى اتهامهم .. ولم يتناول الاتهام الا اناسا بائسين ، يقومون بدور ثانوى فرضته عليهم الأوضاع التى لا قبل لهم بدفعها عنهم !**

وما كان فى ذلك أيضا أى أثر للتفكير السليم ، ذلك لأنهم بدلا من أن يمنعوا تكرار مثل هذه الأمور البشعة ، وينقذوا مثيلات ((كاتوشا)) فى المستقبل ، ويساعدوهن على الخروج من الهاوية التى تردين فيها .. بدلا من ذلك ، كان المرء يرى ـ بفضل ((كاتوشا)) ومثيلاتها ـ موظفين يتقاضون مرتبات ، ويرتقون فى الوظائف ، ويستعرضون بلاغتهم ومهارتهم ..

وبعد ثرثرة لا نهاية لها ، تشهد بمرونة عقلية نادرة ـ ولكنها ثرثرة بلا قيمة ولا معنى ـ دفع الرئيس للمحلفين بقائمة تحوى مجموعة من الأسئلة . فنهض المحلفون ، وساروا الى الحجرة المجاورة ليتداولوا فى الأمر .. والقى «نيكلودوف» ـ فى طريقه ـ نظرة اخرى على ((كاتوشا)) ، فاذا بها قد بدأت تسترد قواها الخائرة .. كانت منفعلة ، مضطربة الأعصاب ، لتهامس مع زميليها وعيناها تلمعان .. بل كانت تبتسم أيضا !.. وما أن دخل المحلفون حجرة المداولة ، حتى أسرع كل منهم باشعال سيجارة .. وتبعت لحظة الاسترخاء الأولى مناقشة حامية .

قال التـــاجر ، الذى كان أول من قابل « نيكلودوف » فى المحكمة :

ـ لا يد للمرأة الشابة فى هذه الجريمة ، انما صديقاها هما اللذان دفعاها ـ بلا شك ـ الى ذلك .

فعارض أحد العسكريين ـ وكان كولونيلا متقاعدا ـ هذا الرأى بشدة . واذ ذاك ، تدخل « نيكلودوف » فجأة ، وعمل جاهدا على اثبات أن « كاترين ماسلوفا » لم تكن قد أضمرت نية سرقة التاجر ، فى اللحظة التى ذهبت فيها الى الفندق بمفردها ، ومعها مفتاح حقيبته .. بل أن الأمر كان على النقيض ، اذ أن وصولها المفاجىء ، غير المنتظر ، أوحى الى « ايباتوف » و « ايفيمى بوتشكوفا » بفكرة انتهاز الفرصة المواتية ، والقاء التهمة كلها عليها !

ولم يكن « نيكلودوف » ـ فى البداية ـ يفكر فى الانحياز الى « كاتوشا » ، ولذلك فقد مضى يناقش الكولونيل ، وهو لا ينتوى الدفاع عنها علانية . ومع ذلك ، فقد انتهى الأمر بأن أقنع الجميع ، ما عدا المستخدم التجارى ، الذى صاح : « انكم لتعرفون ان هؤلاء الفتيات جميعا ، على شاكلة واحدة ! » .. ثم أخذ يقص عليهم كيف أن فتاة منهن ، سرقت ـ ذات مرة ـ ساعة أحد أصدقائه . وانبرى محلف آخر فروى قصة مماثلة ..

واذ ذاك قال رئيس هيئة المحلفين : « كلا يا سادة !.. لن نتمكن من التفاهم قط . فلنجلس أولا ، ونبدأ بالترتيب .. ان لدينا عددا كبيرا من الأسئلة ، يجب أن ندرسها الواحد تلو الآخر ! » .. وعندما جلس الجميع ، أخذ يقرأ الأسئلة الأولى ، التى كانت تتعلق بايفيمى بوتشكوفا وحدها .. وأجمع المحلفون على اعتبارها مذنبة ، ولكنهم رأوا أن هناك ظروفا تحيط بها ، وتشفع فى تخفيف ذنبها .. وجاء دور



النجمة السوفيتية الحسناء ((تاماراسيومينا)) كما بدت في دور ((كاتوشا ماسلوفا)) فى الفيلم السوفييتى الجديد الذى يصور رواية تولستوى الخالدة ((البعث)) (التى تقرأ مخطوطها الاول فى هـذا العدد) .

« سيمون ايباتوف » ، فاعتبره الجميع مذنبا ، وما من ظروف مخففة .

أما المتهمة الثالثة ، فقد أثار أمرها مناقشة حادة ، ومع ان رئيس المحلفين اصر بشدة على ان « كاترين ماسلوفا » كانت مذنبة فى الحالين - أى قتل التاجر بالسم ، وسرقة نقوده - فان هذا لم يمنع التاجر من ان يعارض هذا الراى بعنف ، وان يوفق الى اقناع الكولونيل والموظف التجارى وعدد من المحلفين . غير ان راى الرئيس تغلب فى النهاية ، لا سيما ان التعب كان قد برح بمعظم المحلفين ، فجعلهم على استعداد لأن يؤيدوا الراى الذى بدا انه ارضى الأغلبية ، وبذلك يريحون انفسهم !

وقصارى القول ، ان « كاترين ماسلوفا » اعتبرت مذنبة !

ودق رئيس المحلفين الجرس ايذانا بانتهاء المداولات ، فدس الشرطى - الذى كان يقف بجوار الباب - سيفه فى غمده ، بعد أن ظل مشهره طيلة خلوة المحلفين فى حجرتهم .. وما لبث المحلفون أن ساروا عائدين الى قاعة المحاكمة تباعا ، ثم أقبل القضاة فى اثرهم .

وتقدم الكولونيل من رئيس الجلسة ، محيطا نفسه بجو من الاهمية ، وقدم اليه ورقة الاسئلة ، فالقى عليها الرئيس نظرة ، ثم تحول يتشاور مع مساعديه . واذ كانت كل الاجابات مصوغة فى قالب يطابق الأسئلة الموضوعة ، فانه أعاد الورقة الى رئيس المحلفين ، ورجاه أن يقرأها بصوت مرتفع . فنفذ المحلف ذلك فى الحال . واذ ذاك وجه الرئيس خطابه الى وكيل النيابة ، ليعرف أية عقوبة يقترح توقيعها على المتهمين .

وبدا أن وكيل النيابة كان مهموما حزينا ، لعدم نجاحه فى القضاء على المتهمين تماما ، فأخذ يتصفح القانون ، حتى اذا وجد بغيته فى مكان ما من المجلد ، وقف نصف وقفة ، وقال وهو محنى الظهر : « اقترح معاقبة ايفيمى بوتشكوفا وفقا للمادة ١١٧ من قانون العقوبات ، وسيمون ايباتوف طبقا للمادة ١٨٠٣ . أما كاترين ماسلوفا ، فاقترح أن توقع عليها العقوبة الواردة فى المادة ١٨٣٣ ، الفقرة (٢) ، من نفس القانون » .

وفى صمت كصمت الموتى ، خرج القضاة ليتداولوا الأمر فيما بينهم . وسرعان ما انصرف أغلب الذين كانوا يجلسون فى القاعة ، ترويحا عن أنفسهم ، ريثما تصدر الأحكام .. ولم يبق فى القاعة سوى المسجونين ، اذ ظلوا فى أماكنهم ، ومن ورائهم الجنود ، وقد أمسك كل منهم بندقية ، مشهرا « السونكى » .

وتعمد « نيكلودوف » أن يمر جد قريب من القضبان ، حتى يرى « كاتوشا » عن كثب . فاذا بها قد تغيرت كثيرا ، فرسم الزمن بعض التجاعيد على وجهها ، وأصبحت اهدابها ـ التى كانت فى الماضى جميلة جدا ـ قصيرة .. ولكن عينيها الجميلتين السوداوين ، ظلتا تحتفظان بنفس التعبير الغامض الساحر . ولقد رفعتهما ـ عندما مر « نيكلودوف » أمامها ـ ورمقته بنظرة عابرة ، شاملة .. ثم خفضت رأسها ، دون أن تتعرف عليه .. فما كان أبعد عن خاطرها من فكرة الالتقاء به هنا !

وقال نيكلودوف لنفسه : « نعم ، ما من عجب فى أن يقع تاجر مخمور فى حبها ، ويعهد اليها بمفتاح حقيبته .. هذا أمر طبيعى ! »

الفصل الخامس

لوعة

● **ما لبث** القضاة أن عادوا الى القاعة ، فوقف الجميع ، ثم جلسوا فى الحال ..

وأعلن الرئيس الحكم : لقد قضى على كل من « ايغيمى بولشكوفا » و « سيمون ايباتوف » بالسجن عامين مع الأشغال الشاقة .. **أما « كاترين ماسلوفا » ، فقد حكم عليها بالحرمان من كل الحقوق المدنية ، وبالنفى الى (سيبيريا) .**

وغادر « نيكلودوف » المحكمة فى الساعة الخامسة بعد الظهر ، وعاد الى منزله على قدميه ، وهو شارد اللب ، يسير بخطوات شبه آلية ، متنقلا عبر شوارع (موسكو) . ومر — فى طريقه — بقصر « زناميينكا آربات » Znamienka Arbate وكل كيانه مفعم بالأحاسيس المتداخلة ، المتشابكة ، التى استولت عليه ، وبالأفكار التى ولدتها فيه تلك الأحاسيس ، فاذا الذكريات تشغل كل ذهنه : تذكر الفترة التى عرف فيها « كاتوشا » ، ثم ما رآه فى المحكمة فى الصباح .. واسترجع — تباعا — رؤى رحلته الأولى الى (پانوڤو) ، ثم زيارته الثانية لعمتيه ، وهو فى طريقه الى الجبهة .. واستعرض الأفكار التى ساورته — فى ذلك الصباح بالذات — وكيف كان على وشك الزواج من « آلين كارمالين » . **هذا التحول التام ، جرى بطريقة غير محسوسة .. بالنسبة اليه ، على الأقل .. الآن فقط ، بدأ يفطن الى أنه قضى تلك الأعوام الأخيرة متواريا خلف ستار من نوع ما ، كان يخفى حياته وأكاذيبه !**

وتذكر « نيكلودوف » فجأة — عندما بلغ باب قصر (آربات) — انه وعد آل « كارمالين » بتناول العشاء على مائدتهم ، فقال لنفسه : « كلا ، لن أذهب ! »

.. فلقد شعر بشىء من التنافر وعدم الانسجام بين حالته النفسية وحال آل « كارمالين » ، مما جعله يدرك — فجأة — ان من المستحيل عليه أن يجلس بينهم ، ويتكلم معهم ويستمع اليهم ...

وعاد يقول لنفسه : « لن أذهب ! » .. وتحول راجعا الى منزله . وما أن دلف الى حجرة المائدة — المزدانة بالمدفأة الكبيرة ، والتى ضمت (بوفيه) فاخرا من خشب البلوط ذى النقوش المحفورة — واختلس نظرة الى حجرة الاستقبال ، بجدرانها المكسوة وستائرها ، و (البيانو) الكبير — القابع فيها — واللوحات التى تزين جوانبها ، حتى انتابه استحياء لا يوصف ، وقال يحدث نفسه :

« يجب أن أغير كل شىء ، وفى أقرب وقت ممكن .. ان المجتمع ليس الا خدعة وستارا يخفى من ورائه الفراغ والرذيلة والأنانية .. أكذوبة ، أكذوبة ، أكذوبة .. لكم يملأنى هذا بالغم ! .. كفانى ! لقد سئمت ! »

● ●

● **وجد** « نيكلودوف » على منضدة صغيرة — خلف ستار — ورقة مكتوبة بخط « آلين كارمالين » باللغة الروسية ، وان تخللتها بعض فقرات باللغة الفرنسية :

« كلفتنى والدتى أن أطلب اليك ألا تفكر فى تناول العشاء فى أى مكان ، عقب خروجك من المحكمة .. واذا كنت مشغولا فى الساعة السادسة ، فسينتظرك العشاء حتى منتصف الليل ، اذا دعا الأمر . وتقول أمى ان هذا أقل ما يمكن أن يفعله المواطنون الصالحون ، نحو أولئك الذين يسهرون على العدالة لمصلحة الجميع .. فاحضر فى أى وقت يروق لك — آ . ك . »

آه ، من هذه الفقرات المكتوبة باللغة الفرنسية ، وهذه الدعابات ، وهذا المزاح الخفيف الذى يصعب تمييز الجد

فيه من السخرية ، فلا يدرى المرء أين يبدأ هذا ، ولا أين ينتهى ذاك !..

كان هذا يسره ، الى عهد قريب .. أما الآن ، فقد بدا له قبيحا ، بل ويدعو الى الاشمئزاز ، كما هى حال (الديكورات) المسرحية المعدة على عجل ـ وبدون دقة ـ عندما يراها المرء لا من قاعة المسرح ، بل من فوق المنصة ، أو من وراء الكواليس !

ولكنه قال فى نفسه : « يجدر بى أن أذهب ، بالرغم من كل شىء .. اذ يجب أن أضع حدا ـ بطريقة أو بأخرى ـ لهذه الأكذوبة . اننى أفضل أن أقطع الخيوط المشتبكة ، بدلا من أن أتركها تزداد اختلاطا بعضها ببعض ، وتجر معها خيوطا أخرى » !

وتوقع « نيكلودوف » ـ عندما تبين أن الساعة لم تكن قد تجاوزت السادسة ـ أن يجد آل « كارمالين » على مائدة العشاء .. فنظف ملابسه بالفرشاة ، وأخذ يصفف شعره الغزير أمام المرآة ، كما اعتاد أن يفعل .. وقال لنفسه ، وهو يتطلع الى وجهه ـ فى المرآة ـ بازدراء : « يا له من رأس تعس يثير التقزز .. ان لى بالتأكيد رأس جبان .. اننى جبان بدون شك ! »

● ●

● **كان** منزل آل كارمالين بعيدا جدا ، فى حى (بوكروفكا) . واذ هبط « نيكلودوف » الى الطريق ، استوقف حوذيا . وما ان استقل العربة ، حتى بادر الى اصطناع حديث ـ أيا كان موضوعه ـ مع الحوذى ، ليهرب من أفكاره القاتمة .

وعرض الحوذى ـ الذى اعتاد الثرثرة مع راكبى عربته ـ حال عائلته البائسة ، فى بضع كلمات . كانت تتألف من تسعة أفراد ، كلهم فى حاجة الى الطعام ولكنهم لا يملكون الا ما يكاد يسد رمقهم ، حتى عيد الميلاد على الأكثر . وكان عليهم

ـ فوق ذلك ـ أن يدفعوا ستة وعشرين « روبل » كضريبة ، وهو مبلغ ضخم لابد من تسديده بأكمله دفعة واحدة ، فكان لزاما على أغلب أفراد العائلة أن يذهبوا للبحث عن أعمال فى مكان آخر . أما هو ، فلم ير سوى قيادة العربات فى المدينة ، مما كان يكبده مجهودا ضخما ، ويضطره للعمل بلا توان ؛ وللتساهل حتى يستطيع أن يحصل بمشقة على النفقات اللازمة .. هذه الحالة ـ التى تدعو للرثاء ـ لم يكن لها سوى سبب واحد فى رأيه ، هو : عدم كفاية الأراضى التى يحق للفلاح أن يزرعها ، فى الوقت الذى كانت توجد فيه أراض بدون زراعة ولا استثمار لدى كبار الملاك .

● ●

● **كان** آل « كارمالين » على وشك الانتهاء من العشاء ، عندما وصل « نيكلوذوف » . وما ان دخل الى البهو ، حتى أخبره حارس الباب الوقور بأن سادته كانوا بعد جالسين الى المائدة ، وقال له : « تفضل بالدخول يا صاحب السمو ، فهم فى انتظارك » .

وفى حجرة المائدة ، وأمام (البوفيه) المكتظ بالأوانى ، كان يجلس حول المائدة الكبيرة : « كارمالين » الشيخ ، وأخوه ، وعمه ، و « كولوزوف » ـ طبيب العائلة وأحد دعاة الحرية فى الماضى ـ ومس « رودج » Rodge ، ووواريا Waria ـ الأخت الصغرى لآلين ـ وكاترين الكسندروفنا ، وهى صديقة للأسرة ، عانس فى الأربعين من عمرها تقريبا ، ومن اشد انصار القومية حماسا ، واكثرهم تطرفا .. **واخيرا آلين ، والطالب « بتيا » Petia .. الذى كان اهم شخص فى المنزل ، اذ بلغ من اهميته لديهم ان اضطرت الاسرة لعدم مبارحة المدينة ، نظرا لاقتراب موعد امتحاناته .** أما « صوفى واسيليفنا كارمالين » ـ ربة الدار ـ فكانت متوعكة قليلا ، كعادتها ، فتناولت عشاءها فى مخدعها .

وقال الأب وهو يصافح نيكلودوف بحرارة : « لكم يسرنا أن نراك .. ما زلنا نتناول الشواء ، فتفضل بالجلوس » .. واستطرد موجها أمره الى كبير الخدم : « افعل اللازم ، يا ستيفان ! »

قال الرجل فى سرعة ، وهو يأخذ من (البوفيه) مغرفة كبيرة : « سنعد العشاء لصاحب السمو ، حالا ! » .. وأومأ برأسه تجاه أحد الخدم — وكان شابا قويا ، ذا سالفين بديعين — فأسرع الخادم بوضع أدوات المائدة ، ومنشفة منشاة تحمل شعار العائلة — الذى كان يتمثل فى تاج ودرع — بجوار المكان الذى جلست فيه « آلين » .

وقال الطبيب « كولوزوف » بدوره ، وهو يرمق القادم بعينين لا تنمان عما فى نفسه : « تفضل بالجلوس ، وأخبرنا : هل العدالة — بمفهومها الحديث — لا تزال مستمرة فى تقويض أسس الدولة ؟ »

واتخذ « نيكلودوف » مكانه ، دون أن يجيب عن سؤال هذا السياسى التحررى القديم .. كان كل نشاطه قد فتر ، وأحس بهبوط ، وبأن شيئا ما راح يثقل عليه ويسحقه . ولكنه غضب فجأة ، عندما وجهت اليه « كاترين الكسندروفنا » الحديث بالفرنسية ، على الرغم من آرائها القومية :

— يا لك من مسكين يا ديميترى ايفانوفتش !.. انك متعب ولا شك !

فأجابها نيكلودوف بالروسية : « فى غاية من التعب ! »

فأردفت العانس : « وبعد ؟.. هل أدين متهموك أم برئوا ؟ »

وأجاب نيكلودوف ، وقد قطب حاجبيه : « لا هذا ولا ذاك ! »

ثم استدار ناحية « آلين » ، التى ابتسمت له .. ولكن

تلك الابتسامة انحسرت فجأة ، كما ينحسر الظل ، اذ أدركت بالحاسة السادسة ـ التى تملكها المرأة ، والتى لا تخدعها أبدا ـ **أن « نيكلودوف » قد تحرر من سلطانها عليه ، أو أنه كان وشيك التحرر ، على الأقل !.. وتأكدت من ذلك ، عندما أبصرت علامات التوتر على وجهه ، وهو التوتر الذى كانت تناضل ضده بنجاح منذ زمن بعيد ، وطالما اغتبطت اذ بدا لها أنه وشيك الزوال تماما !**

وقال لها نيكلودوف ، حين دعته بلطف الى الطعام :

« أرجو أن تعذرينى ، فليست لدى اليوم رغبة فى الطعام ، ولن أستطيع أن أبتلع لقمة واحدة ! »

ومع ذلك ، نشر « نيكلودوف » منشفته ، واقترب بمقعده من المائدة . وبدا جو منزل آل « كارمالين » متغيرا فى ذلك اليوم .. فقد أخذ كل شىء يزيد فؤاد « نيكلودوف » اكتئابا : الأسئلة التافهة المبتذلة ، الموجهة من الأستاذ « كولوزوف » ، الذى كان يتظاهر بمناصرة الآراء المتحررة .. وتصرفات الشيخ « كارمالين » ، الذى راح يأكل بشراهة ، موجها كل اهتمامه الى العشاء بشكل واضح .. ثم استعمال « كاترين الكسندروفنا » اللغة الفرنسية فى غير محلها ، وتعبيرات وجه الطبيب والمربية الانجليزية ، وهذه الأوانى الفضية ، وتلك المصنوعة من بلور (بوهيميا) ، وأصناف الطعام المنتقاة ، والمشروبات الفاخرة ، والخدم .. **وكل هذا الاطار المترف ، الذى خيل اليه أنه يراه للمرة الأولى ، وان كانت حياته الخاصة وشعوره بجرائمه هما اللذان أثارا ضيقه فى الواقع !**

ونهض « كارمالين » عن المائدة ، قائلا : « لست أريد أن أزعجكم ! » .. وغادر حجرة المائدة ، فتبعه الجميع ماعدا « آلين » و « كاترين الكسندروفنا » ، اذ بقيتا مع « نيكلودوف » . وكالعادة ، بوغت « نيكلودوف » بكثرة الطعام وأصنافه ، ولكنه فى هذه المرة ـ وقد جلس يأكل بمفرده ،

ووقف اثنان من الخدم رهن اشارته ـ شعر بضيق لا يطاق ! وبعد أن أكل الخضر ، وتناول فطيرة ، وأتى على صنف آخر من الطعام ، كف عن الأكل ورفض باصرار باقى أصناف العشاء .

وسألته كاترين الكسندروفنا : « ألم تر آخر لوحة رسمتها آلين ؟ »

ـ أعتقد أننى لم أرها .

ـ فلنذهب لرؤيتها اذن !

وتوجه الثلاثة الى مرسم « آلين » ، المكتظ بحوامل الصور ، وباللوحات ، وبأشياء عديدة .. وأرته « آلين » لوحتها الأخيرة : كانت تمثل وجه فتاة صغيرة ، ذات شعر مرسل على كتفيها . فرمق « نيكلودوف » اللوحة بنظرة فاترة .. كان كل شىء بالنسبة اليه ـ فى تلك اللحظة ـ فوق الاحتمال . فقالت له « آلين » ، وهى تتأمله من طرف خفى ، بتوجس : « أرى أن منصب المحلف يصيبك بفتور فظيع ! »

ـ نعم ، انك على حق .. ولكن هناك شيئا آخر ...

ـ ما هو ؟

ـ شىء غير عادى ، صادفنى هذا الصباح . وأعترف أنه قد حيرنى تماما !

وتساءلت كاترين الكسندروفنا : « ما هو ؟.. اسمع ، أهو سر لا تستطيع أن تبوح لنا به ؟ »

ـ نعم ، لا أستطيع ـ فى اللحظة الراهنة ـ أن أقول أكثر من ذلك .

فسألته « آلين » ، باشفاق وحنو نفذا مباشرة الى قلبه :

ـ أهو شىء غير سار بالنسبة لك ؟

ـ نعم .. ولا ! فهو ـ من ناحية ـ غير سار ، لأنه جعلنى أراجع نفسى ، وأجبرنى على اعادة النظر فى أمور كثيرة ..

وهو – من ناحية أخرى – سار ، لأنه يفتح أمامى آفاقا وامكانيات جديدة ، ويفرض على ضرورة تحسين أسلوب حياتى .. وهذا أمر لم يكن ثمة غنى عنه اطلاقا .. معذرة ، ولكننى لا أستطيع – فى اللحظة الراهنة – أن أقول لك أكثر مما قلت !

قالت « كاترين الكسندروفنا » ، وهى مشغولة البال ، تحاول أن تكتشف الأمر : « اذن ، فهو سر بكل تأكيد . وبما اننى جامحة الفضول ، فسأعمل جاهدة على أن أستشف الموضوع .. نبئنى ، هل حدث هذا الأمر فى المحكمة ؟.. وهل تراه لا يتعلق الا بك وحدك ؟ »

– معذرة ألف مرة يا كاترين الكسندروفنا .. لا أملك أن أخبرك بشىء . بل اننى أفضل أن أنصرف !

وتدخلت آلين – فى الحديث – قائلة : « اننى أفهمك حقا ، ولكن .. مهما يكن من الأمر ، فلا تنس شيئا .. لا تنس أن كل ما يمسك ، يمس أصدقاءك فى نفس الوقت . هل فهمتنى جيدا ؟ » . واذ أجابها : « نعم » ، عادت تسأله :

– هل ستأتى لرؤيتنا غدا ؟

– كلا . لا أظن ذلك . الى اللقاء !.. وعلى كل حال ، فانى أشكر لكما هذه المشاعر التى لا أستحقها !

وما ان رحل « نيكلودوف » ، حتى صاحت كاترين الكسندروفنا : « ما الذى جرى له ؟.. لا بد أن أعرف الموضوع ، مهما يكبدنى ذلك !.. اننى أوقن من أنه أمر يتعلق بالكرامة ، فان عزيزنا « ميتيا » شديد الحساسية !.. الأمر المؤكد هو أنه رجل غريب الأطوار ، وقد لمحت – منذ أمد طويل – أنه يتأهب لأن يقلب صفحة جديدة فى حياته .. غير أنه لا ينبغى أن يفعل ذلك بانقلاب جذرى ، كعهده فى كل شىء ..! »

الفصل السادس

قرار محتوم

● وفى هذه الأثناء ، كان « نيكلودوف » عائدا الى منزله مشيا على الأقدام ، دون أن يكف عن التفكير فيما ينبغى أن يفعله . . **الأمر الوحيد الذى كان يوقن منه ، هو انه سيبذل فى الغد قصارى جهده ليتمكن من زيارة « كاتوشا » ، والافصاح لها عن كل ما فى قلبه ، دون أن يخفى عنها شيئا !**

ونام « نيكلودوف » فى ساعة متأخرة ، فراوده حلم مزعج ، شاهد فيه « كاتوشا » تحاول جاهدة أن تمر خلال باب ، ولكن دون جدوى .. وعلى الرغم من رغبته فى مساعدتها ، فانه عجز عن ذلك ، اذ راحت تعوقه عصى نصبت فى طريقه .. ولم تكن تلك العصى سوى الأقوال التى سمعها من رئيس المحكمة !

ولم يستيقظ ـ فى الصباح ـ الا فى ساعة متأخرة ، نتيجة مجافاة النوم اياه طويلا فى الليلة السالفة . ومن ثم فانه لم يستطع الوصول الى المحكمة قبل الساعة العاشرة . وكان أول ما خطر له ، هو أن يسعى لمقابلة الرئيس .. ولكنه لم يجد وقتا لذلك ، اذ كانت هناك قضية أخرى على وشك أن تبدأ .

وفى قاعة المحلفين ، حياه الجميع تحية الأصدقاء ، وكأنهم كانوا يعرفونه منذ زمن بعيد .

على أن حالته النفسية كانت ـ فى ذلك اليوم ـ مختلفة تماما عنها فى سابقه ! فان ما بدا له بالأمس تافها ، غير ذى قيمة تذكر ـ من أمورهم ـ تراءى له اليوم مضحكا ، بل سخيفا !

وافتتحت الجلسة بقضية سرقة مع سبق الاصرار . فقد سرق خادم ـ لم يكن عمره يتعدى الثانية والعشرين ـ بعض

سجاجيد لا قيمة لها . كان قد تعطل عن العمل منذ مدة ، فسكر ذات ليلة ، ودخل المسكن الذى كان قد طرد منه ، واستولى على أول شىء وقع عليه بصره ، دون أن يعرف لذلك سببا .. وعندما فوجىء متلبسا بالجريمة ، اعترف فى الحال !

وتبين – بعد ذلك – أن السجاجيد المسروقة لم تكن ذات قيمة . أما الشاهدان – وكان أحدهما شرطيا ، والآخر شخصا مغمورا – فلم يكلفا نفسيهما عناء اخفاء الضيق الذى سببته لهما قضية مملة ، فاترة ، كأنها يوم من أيام الخريف !

واخذت ثورة « نيكلودوف » تزداد ، بمواصلة النظر فى القضية . اذ أن الاجراءات القانونية لم تبد له يوما عديمة الجدوى والأثر ، كما بدت له اذ ذاك .. وكان أكثر العوامل اثارة لحنقه ، هى تلك البساطة التى كانت حياة المرء تحال بها الى ألعوبة . وقد اضطر الى أن يبذل مجهودا ضخما ، ليبقى فى القاعة حتى نهاية القضية . فقد شعر أكثر من مرة ، برغبة فى الوقوف ، مدفوعا بقوة لا تقهر ، ليقول لجميع الحاضرين : « كفى مزاحا يا سادة !.. لماذا تهزأون هكذا بآلام شخص غير مسئول ؟ انكم لتعلمون جيدا أن ذنب هذا الفتى البائس بسيط جدا ، وان ظروفا معروفة لنا جميعا ، هى التى دفعته الى ذلك . فضعوا حدا لهذه المهزلة ، واتركوه ينصرف بسلام !.. الا ارأفوا به ! »

ولم يمنع « نيكلودوف » من الانسياق لهذا الاغراء ، سوى خوفه من أن يؤثر تصرفه هذا – تأثيرا سيئا – على وكيل النيابة ، فيمنعه من رؤية « كاتوشا » . لذلك سيطر على انفعاله ، وقرر أن يتشبث بالهدوء حتى آخر الجلسة . غير أن استمرارها وقتا أطول مما كان متوقعا ، حال دون أن يقابل « نيكلودوف » رئيس المحكمة ، حتى صباح اليوم التالى ، عندما سعى اليه فى مكتبه .

● **استقبله** رئيس المحكمة واقفا ، وهو يتأهب للخروج . وسأله بلهجة جافة ، وقد بدت عليه بوضوح دلائل الامتعاض من الحاح زائره فى طلب مقابلته : « ماذا تريد يا سيدى ؟ »

فأجابه نيكلودوف : « اننى أدعى نيكلودوف ، عضو فى هيئة المحلفين فى الجلسة المنعقدة فى هذه اللحظة .. وقد جئت أطلب اليك الاذن لى بزيارة السجينة « كاترين ماسلوفا » ، التى حكم عليها ـ أمس الأول ـ بالسجن والنفى الى سيبيريا » .

وكان يشعر بأن هذه المحاولة كفيلة بأن تقرر مصير حياته كلها ، فأحس بقلبه يهتز اضطرابا ، وتولاه انفعال شديد ، أشاع الرعشة فى جسده كله !

وأجابه الرئيس بخشونة : « وما الداعى لهذه الزيارة ؟ » .. ثم أردف ، متلطفا : « ليس بوسعى أن أساعدك ، طالما كنت أجهل بواعث هذا الطلب » .

فصاح « نيكلودوف » ، والحمرة تكسو وجهه :

ـ اذا كنت أقوم بهذه المحاولة لديك ، فما ذلك الا لأن هناك أسبابا قاهرة . فأنا وحدى المذنب وراء مثول هذه المرأة أمام محكمة الجنايات . لقد أغويتها ، وقدتها ـ بهذه الفعلة ـ الى الجريمة !

ـ ولكننى ما زلت لا أفهم سر الحاحك بهذه الدرجة فى طلب رؤيتها .. ما هو السبب المباشر الذى يدفعك لذلك ؟

ألقى الرئيس بهذا السؤال وقد قطب جبينه ، وخالجه شىء غير قليل من القلق . فقال نيكلودوف :

ـ السبب ؟.. السبب اننى أريد أن أتزوج من « كاترين ماسلوفا » !

ولم يكن « نيكلودوف » قد حسم أمره على الزواج من « كاتوشا » ، الا خلال مناقشته مع رئيس المحكمة .. ولاذ الرئيس بالصمت طويلا ، وهو ينقل بصره بين المنضدة التى

كان يقف الى جانبها ، وبين « نيكلودوف » . وما لبث أن قال :

ــ انك ، على قدر ما أتذكر ، السيد نيكلودوف الذى كان مشتركا ــ فى الماضى ــ فى الصليب الأحمر .. اذا لم أخطىء الحدس !

ــ عفوا يا سيدى الرئيس ، ولكنى لا أعتقد أن لهذه التفصيلات علاقة بالالتماس الذى تقدمت به .

ــ كلا ، طبعا . ولكن .. لما كان طلبك يبدو لى غريبا جدا ، و .. من ناحية أخرى ...

ــ عفوا ، ولكن .. هل سيتسنى لى الحصول على اذن برؤيتها ؟

ــ اسمع .. هذا ليس فى نطاق سلطتى فى الوقت الحاضر ، فان السجينة ــ بمجرد ادانتها ــ تغدو تحت امرة السلطة المدنية . انها ــ فيما أعتقد ــ موجودة الآن فى قلعة (بوتيركى) .. وأرى أن تتجه الى هناك !

ــ تكرم ، مرة أخرى ، وأرشدنى .. الى من يجب أن أتوجه بطلبى ؟

وأجابه الرئيس بلهجة جافة ، وهو يشير ــ بحركة خفيفة ــ الى أن المقابلة قد انتهت : « الى المحافظ ، أو الى مدير السجن » . فأردف نيكلودوف : **« أرى لزاما على ــ كذلك ــ أن أخطرك بأننى لن أستطيع الاشتراك فى الجلسات بعد الآن ! »**

وصاح الرئيس ودهشته تتفاقم :

ــ ولكن ، لماذا ؟ .. اسمح لى بأن أقول لك ، ان عليك أن تقدم لذلك أسبابا تستحق أن تؤخذ فى الاعتبار .

ــ ان الأسباب التى تدفعنى لهذا ، هى : أننى أجد العدالة غير ذات جدوى .. بل انها لا تتمشى ومبادىء الأخلاق كذلك !

وابتسم الرئيس ، فى اهتمام نم عن أنه أدرك ما فى الأمر ،

وان هذا النـوع من التصريحات كان مألوفا لديه الى درجة لم يعد معها يدهش منه اطلاقا .. ثم قال أخيرا : « اننى وقد أحطت علما برفضك الحضور ، أرى لزاما على أن أقول لك ــ بوصفي رئيسا للمحكمة ــ اننى لا أستطيع قبول انسحابك رسميا . لهذا أنصحك بأن توجه استقالتك الى سكرتيرية المحكمة . وبعد فحصها ، سيبلغك السكرتير ما اذا كانت جديرة بالقبول .. واذا رفضها ، فأنذرك بأنه سيقضى عليك بغرامة مالية كبيرة اذا تخلفت عن الحضور ! »

وصاح نيكلودوف مهتاجا : **« عفوا يا سـيدى .. اننى أكتفى بابلاغك ، ولن اتقدم الى اية جهة اخرى ! »** .. فقال الرئيس ، وقد بدا عليه أنه كان يتحرق رغبة فى التخلص من هذا الزائر الغريب ، بأسرع فرصة : « لا بأس يا سيدى .. أنت وشأنك ! »

وتساءل أحد المستشارين ، وهو يلج مكتب الرئيس : « من هذا السيد ؟ »

ــ انه « نيكلودوف » الذى لا بد أنك تعرفه ، لما كان له ــ فيمـا مضى ــ من نشـاط فى الصليب الأحمـر وفى بعض الجمعيات المناصرة للحرية .. مما أثار ضجة كبيرة !.. **تصور انه ، وهو عضو فى هيئـة المحلفين ، قد عرف بين المتهمين امرأة قضى عليهـا بالنفى .. وكان ، باعترافه ، قد أغواها فى الماضى ــ ولا أعرف أين ، ولا كيف ؟ ــ فاذا به ، وقد شعر بالندم ، يريد أن يتزوجها الآن !**

ــ هذا غير ممكن !

ــ لقد قال لى ذلك بنفسه .. والحق انه كان فريسة لانفعال غير طبيعى ، عندما أعلن لى قراره !

ــ كل شبابنا الآن ، على هذا المنوال .

قال الرئيس وهو يغـادر المكتب ، وفى أثره المستشار : « ولكنه لم يعد صغير السن ! »



«.. يومين قضاهما « نيكلودوف » فى البيت مستلقيا فى فراشه يفكر ، ويفكر دون توقف ..»

● **توجه** « نيكلودوف » ـ بعد أن غادر رئيس المحكمة مباشرة ـ الى المحافظ ، فلم يجده فى مكتبه ، فضلا عن أنه لم يكن يستقبل أحدا من زائريه قبل الساعة الثانية من بعد الظهر .. وباصرار شديد ، اعتاد أن يتولاه عندما يرغب فى الوصول حقا الى غاية معينة ، اتجه الى مكتب نائب المحافظ ، دون أن يضيع وقتا . بيد أنه لم يوفق الى مقابلته هو الآخر . وأشير عليه بأن يسعى الى رئيس الشرطة القضائية ..

غير أن رئيس الشرطة القضائية صارحه بأنه لم يكن يملك أن يفعل شيئا على الاطلاق ، دون أمر خاص من محافظ (موسكو) . وكان من المؤكد أن يحول « نيكلودوف » ـ أكثر من مرة ـ من مكتب الى آخر ، لو لم يحزم أمره على التوجه ثانية الى المحافظ ، وأن يصر على لقائه دون ابطاء . ووفق فى هذه المرة .. **وما ان دخل مكتب المحافظ ، حتى صاح وقد انتابته نوبة عاتية من السخط والغضب : « يا سيدى المحافظ ، أما آن لهم أن يخبرونى : الى من أتوجه ، وماذا ينبغى أن أفعل ؟ ! »**

وانطلق يعرض قضيته بحرارة وثورة أخذا يزيدان من قلق المحافظ باطراد : « .. ولست أحسبنى مخطئا اذا قلت اننى لا أطلب منكم جميلا خاصا .. بل ما كنت لأطلب شيئا ، لو لم أكن فى حاجة ماسة .. اننى لا أرجو ـ فى هذه اللحظة ـ سوى أن تمكننى من رؤية هذه المرأة البائسة ، التى تعذبونها دون أن يكون لها يد فى شيء ! »

وبلغ انفعاله ذروته ، حتى أنه لم يعد يشعر بالكلمات التى راحت تنطلق من بين شفتيه ، وهو يرفع صوته : « **اننى أناشدك الاذن لى باصلاح الضرر الذى ألحقتموه بها .. وفى أسوأ الحالات ، أطالبكم بأن تضعونى فى السجن الذى سجنت فيه تلك المسكينة .. حتى أستطيع أن أراها وأتحدث اليها ! »**

قال الحاكم يلفت نظره : « عفوا يا سيدى ، أرجو أن تكون أكثر مراعاة للأصول ، والا تصيح هكذا ، والا ... »

ـ ماذا اذن ؟ ما معنى « والا » ؟... أتريد أن ترهبنى ؟ لعلك تريد أن تخرجنى من هنا بالقوة ؟.. لكن ما دمنا هنا ، فاننى أبيح لنفسى أن أقول لك : لست أنا الذى يتقاضى مرتبا ليخدمك ، بل العكس تماما .. أنت الذى يجلس هنا لهذا الغرض . فلست أتعدى حقوقى ، عندما أطالبك بتنفيذ واجبك !

ثم توقف لحظة ، ليضيف بلهجة أقل حدة : « وعلى أية حال ، اذا كنت قد مسست مشاعرك ، فاننى ألتمس المعذرة .. اذ أن هذه الأساليب البيروقراطية الغريبة تجعلنى مجنونا ، كما تعلم ! »

ـ الهدوء يا سيدى !.. الهدوء !

وتظاهر الحاكم ـ فى البداية ـ بالاستياء ، ثم اتخذ مظهرا غاية فى الهدوء ، بل والتواضع .. وأخيرا ، عهد إلى أحد أتباعه باتخاذ ما ينبغى ـ وفى أقصر وقت ـ لارضاء صاحب الطلب .

واستغرقت هذه المساعى يومين ، قضاهما « نيكلودوف » ـ فيما عدا الساعات المخصصة للمشى المضنى فى المدينة ـ فى البيت مستلقيا تارة على الأريكة ، وتارة أخرى رائحا غاديا فى المسكن ، أو واقفا بجوار النافذة مستغرقا فى أحلامه .. كان يفكر ، ويفكر دون توقف :

« نعم ، سوف أتزوج ، أو ـ بعبارة أخرى ـ سوف أفعل ما كنت أريد أن أفعله قبل أربعة عشر عاما .. مع فارق واحد ، هو أننى **سأذهب مع زوجتى الى سيبيريا ، بدلا من أن نذهب الى القوقاز لأزرع أراضى كما كنت أريد أن أفعل فى الماضى .. سأذهب الى سيبيريا لأفلح أرضا أشتغل فيها كعامل اجير .. واذا كنت ـ فى الماضى ـ قد استطعت ان**

أقاوم ، على أمل أن أجد زوجة أفضل من « كاتوشا » — بالرغم من أنه من العسير العثور على مخلوقة أكثر جاذبية وطهرا مما كانت هى عليه — فان الأمر الآن يختلف تماما ..
فليس لى الآن خيار ، ولست أملك أن أترك « كاتوشا » .. سوف أصلح غلطتى ، وأكرس نفسى — قلبا وجسدا — لزوجتى .. ولها وحدها !.. وبما أننى لا أملك أيضا أن أختار مكان اقامتنا ، فسوف أسافر معها الى سيبيريا ، وسيكون — فى هذا — الخير كله ! »

الفصل السابع

فى السجن

● **وأخيرا** ، تمكن « نيكلودوف » من الدخول الى سجن (بوتيركى) Boutirky .

كان ذلك فى صباح يوم مشمس — من أيام الأحد — تألق فيه الربيع بكل بهجة نضارته ، وشاع الدفء فى جوه ، وتفتحت فيه براعم أشجار الكرز والصفصاف والحور ، وعبق هواؤه بشذى الزهور .

وكانت نوافذ المتاجر والمساكن مفتوحة على مصاريعها ، وقد أخذ بعض الناس ينظفون زجاجها بهمة ونشاط . وكان الوقت مبكرا . ولكن .. بينما كان الجانب الأيسر من الطريق يستلقى وادعا — فى ظل مشبع ببرودة الصباح — أخذ الغبار يتراكم على الطريق ، من جراء العربات والمركبات التى كانت تجتازه فى جلبة وضوضاء !

واخذ الجو يمتلىء بالصيحات والنداءات المزعجة ، التى كانت تصدر عن باعة اللبن وغيرهم من الباعة الوافدين من الريف فى أعداد كثيرة .. وازدحمت الميادين — التى تناثر على

أرضها روث الحيوان والتبن والقش ـ بمركبات للنقل مختلفة الأشكال والأحجام .

ومن بين الأسواق التى اجتازها « نيكلودوف » بمركبته ، سوق (سمولينسك) Smoliensk .. وكانت زاخرة بالناس ، الذين راحوا يطوفون بالمتاجر والخيام المضروبة ، كما كانت تعج بجلبتهم التى تصم الآذان .. وكان بين الباعة المتجولين تجار يبيعون الأحذية الطويلة ، وآخرون يحملون على ظهورهم ثيابا منسقة بعناية ، يعرضونها للبيع .

وبالقرب من مشارب الجعة ، احتشد عمال تحرروا من السخرة الأسبوعية ، التى كانت تتمثل لديهم فى أيام العمل الستة : رجال فى سترات لامعة ، ونساء فى أثواب صارخة الألوان ، مطرزة بالخرز ، وقد أحطن رؤوسهن بمناديل من الحرير المزركش .

وكان رجال الشرطة يقفون فى مراكزهم فى مظهر جاد . وأخذ قوم ـ ممن يحبون الخروج فى نزهات مبكرة ـ يتجولون فى الشوارع والطرقات ، على حين جلست بعض الخادمات هنا وهناك ، فى صحبة الأطفال . ومن وقت لآخر ، كانت احدى مركبات السادة تمر بسرعة كالزوبعة .

وصادف « نيكلودوف » ـ فى شارع (دولجوروكوف) Doljoroukoff ـ جنازة يتقدمها القساوسة والشمامسة بأرديتهم المذهبة ، وحاملو المشاعل .. وكانت تجر عربة الموتى الفاخرة عدة أزواج من خيول غطيت رؤوسها وظهورها بأغطية سوداء ، تتبعها قافلة من العربات السوداء ، بدت فى العربتين الأوليين منها وجوه مكتئبة ، ذات عيون محمرة لفرط البكاء .. ووجوه ـ فى المركبات الأخرى ـ غير مكترثة ، تكاد تكون فرحة ، لاسيما فى المركبات الأخيرة .

وأخيرا ، رأى « نيكلودوف » أبراج السجن المدببة ، تظهر

الى يساره .. وبعد لحظة ، لمح السور الحديدى للحديقة الزاخرة بأشجار « الأكاسيا » المزدهرة .

وكان الحوذى يعرف المدخل المخصص للزوار معرفة تامة ، فلم يقف عند باب السجن الخاص بالعربات ، بل مضى الى ممر ضيق فى الحديقة ، أفضى الى باب جانبى . **وهناك وجد « نيكلودوف » حشدا من الرجال والنساء ، حمل أغلبهم لفافات فى أيديهم ، وقد تجمعوا على مسافة مائة متر من السجن .. كما كان ثمة آخرون يروحون ويجيئون ، فى مكان مربع مغلق الجوانب ، ارتفع الى يساره مبنى من الخشب أيضا ، ذو طابقين ، تنم اللوحة التى علت واجهته عن أنه من ملحقات السجن .**

وفى نهاية الفناء ، ارتفع مبنى من الحجر كئيب المظهر ، ذو باب عريض .. وأمام هذا المبنى ـ الذى لم يكن قد دخله بعد أحد من الزائرين ـ أخذ « ديدبان » يسير بخطى منتظمة ، جيئة وذهابا ، وهو يحمل بندقية مشهرة « السونكى » .. بينما جلس ـ الى يمين هذا المدخل ـ حارس آخر ، بدا أن مهمته هى حفظ النظام بين الزائرين .. فكان عليهم أن يسعوا اليه أولا ، وبعد الاجراءات المعتادة ، كان يكتب أسماءهم ، وأسماء المسجونين الذين يبغون رؤيتهم ، فى ورقة خاصة .

ومن ثم تقدم « نيكلودوف » الى هذا الحارس ، وذكر له اسم « كاترين ماسلوڤا » ، ثم استفهم منه قائلا : « لماذا لم يسمح لأحد بالدخول حتى الآن ؟ »

فأجابه الحارس : « ذلك لأن القداس الأول لم ينته بعد .. بمجرد انتهائه ، ستفتح الأبواب » .

ثم صاح الحارس ـ فجأة ـ موجها الحديث الى رجل رث الثياب ، انسل من الجمع : « وأنت يا سيد .. الى أين تذهب ! »

ورجع الرجل الى مكانه ، دون أن ينبس بكلمة واحدة .

وكان بين الذين احتشدوا أمام السجن ، أناس أوحى مظهرهم بأن بعضهم من صغار الطبقة الوسطى ، وبعضهم من التجار ، وقد اصطحبوا زوجاتهم .. على أنهم — بوجه عام — بدوا غير مكترثين بشىء !

وحضر أحد الطلبة العسكريين ، فى زى رسمى ، مصطحبا فتاة — فى عربة خاصة — وقد حمل لفافة كبيرة فى يده . وما ان غادرا المركبة ، حتى اقتربا من الحارس ، وسألاه أين وكيف يستطيعان أن يقدما الى نزلاء السجن خبزا أبيض وفطائر أحضراها معهما . وعلم « نيكلودوف » — فيما بعد — أنهما كانا خطيبين ، حرصا على الترفيه عن البؤساء ببعض الحلوى ، فى اليوم السابق على زواجهما !

وأراد « نيكلودوف » أن يشعل سيجارة ، فطلب ثقابا من أحد الواقفين بجواره ، وكان رجلا يرتدى ملابس جد متواضعة . وأخذ يجاذبه الحديث .. كان الرجل خادما فى أحد المكاتب ، وقد حضر لزيارة أخ له ، أدين فى قضية نصب . وأخذ الرجل — الذى كانت تبدو على وجهه سمات الطيبة — يروى قصته طواعية .. وقبل أن يصل الى نهايتها ، فتحت البوابة الضخمة على مصراعيها ، لتمر خلالها ثلة من الأطفال .. أولئك كانوا أبناء المسجونين — الذين قضى عليهم بالنفى الى (سيبيريا) — وقد ارتدوا ملابس غاية فى النظافة ، وغطى الأولاد منهم رؤوسهم بقلنسوات صغيرة ، بينما أحاطت البنات رؤوسهن بمناديل .

وسار الأطفال فى صف منتظم — تحت اشراف بعض النسوة — الى مبنى كان يقوم الى اليسار ، وقد أنشأه بعض أهل الخير خصيصا لأبناء المسجونين .. **وما ان دخلوا المبنى ، حتى أعلن الحارس الزائرين بان لهم ان يدخلوا .. وتنحى**

« الديدبان » عن الباب ، فاندفع الناس فى عجلة ، وكأنهم كانوا يخشون ألا يبلغوا غايتهم .

وصاح الحارس فيهم : « أين أنتم حتى تركضوا هكذا ؟ .. لديكم متسع من الوقت ، فلا تتعجلوا ! »

ووقف « نيكلودوف » عند الباب الداخلى للسجن ، الذى فتح بحيث يسمح بدخول الزائرين فرادى — واحدا بعد آخر — تحت رقابة أحد العسكريين . وما لبث « نيكلودوف » أن اجتاز الباب ، فى أعقاب الرجل الذى تعرف اليه قبل قليل . ومس الموظف — الذى كان يحصى الزائرين جميعا ، فى انشغال واستغراق — كتف « نيكلودوف » بيد قوية ، وقال : « السابع عشر ! »

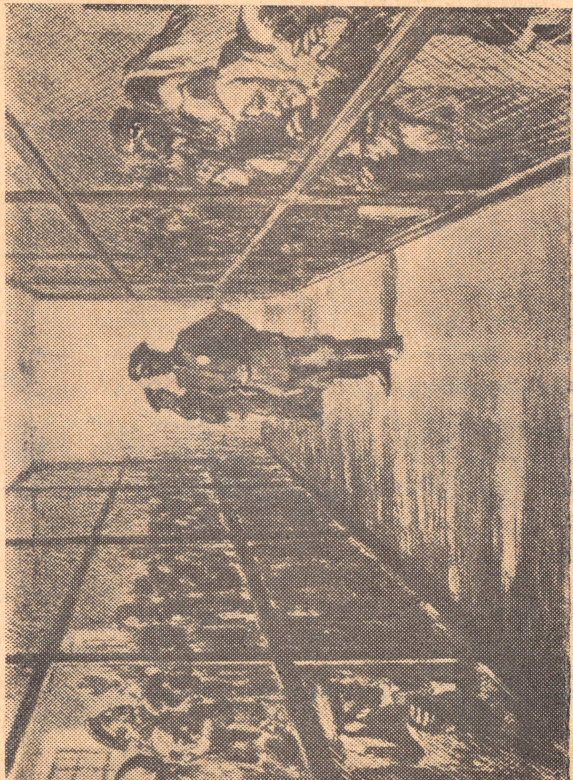
● ●

● **كان** هذا الباب يؤدى الى باب آخر ، وقف وراءه جندى وصف ضابط ، راحا — بدورهما — يحصيان الزائرين .. فقد كان لزاما أن يتطابق عدد الداخلين مع عدد الخارجين ، تفاديا لبقاء شخص مشاكس فى الداخل ، أو هروب سجين متسللا بين الزائرين !

وأفضى هذا الباب الأخير الى ردهة طويلة تعلوها قبة ، رأى « نيكلودوف » — فى قبو تحتها — تمثالا كبيرا للسيد المسيح مصلوبا .. وتأمل التمثال فى دهشة بالغة ، وقد جال بخاطره أن هذا الرمز قد أقيم فى انسب مكان له .. فى المكان الذى فيه كثير من التعساء !

وتحول « نيكلودوف » يتابع سيره وراء الآخرين ، وهو يرتجف لفرط الانفعال ، وقد راح خياله يسبقه الى تصور ما يرتقبه .

ولم يفطن — فى غمرة اضطرابه — الى سؤال وجهه اليه أحد الحراس : « هل السجين الذى جئت لزيارته رجل أو امرأة ؟ » .. بل سار مقتفيا حشد الزائرين دون وعى ، حتى



٠٠ كان ثمة سياجان من القضبان ، يفصل بينهما حوالى ذراعين ونصف الذراع ٠٠ وفى هذا الممر الفاصل ، انبث جنود كانوا يتحركون جيئة وذهابا ٠٠

ولج وراءهم قاعة كبيرة ، شطرت الى نصفين بقضبان حديدية امتدت من السقف الى الأرض .

كان ثمة سياجان من القضبان ، يفصل بينهما حوالى ذراعين ونصف الذراع .. وفى هذا الممر الفاصل ، انبث جنود كانوا يتحركون جيئة وذهابا .. وتجمع المسجونون وراء أحد السياجين ، بينما وقف الزائرون وراء الآخر .. والتصق كل فريق بالحاجز ــ الذى فى ناحيته ــ وراحوا يمــلأون الجو لغطا وغوغاء بأصواتهم .

وأخذ بعض الأشخاص يجــرون من جانب الى آخر ، باحثين فى قلق عمن جاءوا لزيارتهم ، فاذا ما اهتدوا اليهم ، التصقوا بالقضـــبان ــ بدورهم ــ فى مواجهتهم .. **وكان من الطبيعى أن يحرص كل امرىء على أن يطغى صوته على صوت جاره ، حتى يسمع محدثه كلامه .. بيد أن النتيجة الوحيدة لهذا ، كانت استحالة أن يستبين المرء أى شىء مما يقال ، اذ اختلطت الأصوات ، وتحول الكلام الى صياح يصم الآذان !**

ومضت لحظات قبل أن يتبين « نيكلودوف » أنه أخطأ الاتجاه ، فسأل رجلا كان يقف وراء الجمع ، وبدا أنه كان رئيس الحراس :

ــ هل لك أن تخبـــرنى : أين يوجد المبنى المخصص للسيدات ؟

ــ **آه !.. ليس هنا سجن النســـاء .. أتنشــد قسم السيدات ؟**

ــ طبعا ، ما دمت أسأل عنه .

ــ **كان عليك أن توضح هذا من قبل .. أما الآن ، فقد تأخرت كثيرا .. مستحيل !**

ولكن نيكلودوف ألح عليه ، قائلا : « ما العمل ؟.. أهو مستحيل حقا ؟ »

فهز الرجل رأسه قائلا : « **طبعا ، ما دمت أقول لك انه**

مستحيل . كل الأبواب مغلقة ، فكيف تريدنى أن أفعل شيئا لمساعدتك ؟ »

ــ ألا تستطيع حقا أن تفعل شيئا ؟

ألقى « نيكلودوف » بهذا السؤال ، بالرغم من أنه أحس ــ فى قرارة نفسه ــ بارتياح لارجاء رؤية « كاتوشا » ، فقال الحارس :

ــ لن تستطيع شيئا يا سيدى .. لا شىء على الاطلاق ، فان الأبواب جميعا ستغلق فى تمام الساعة الثانية عشرة ، ولن يبقى هنا أى شخص !

على أن الحارس عنى ــ فى تلك الأثناء ــ بتفحص الزائر بامعان ، مسائلا نفسه ان كان جديرا بأن يتجشم لأجله أى عناء !.. فلما تبين جدارته قال : **« أرى أن أخالف التعليمات مرة ، اكراما لك ! »**

ثم صاح مناديا أحد معاونيه ، باسم « سيدوروف » ، فأقبل شاب قوى البنية ، مليح الشكل ، بادره الحارس قائلا : **« أرجو أن تصحب هذا السيد ــ يا سيدوروف ــ الى قاعة استقبال الزائرين ، فى قسم النساء ! »**

وشكر « نيكلودوف » الحارس ، ثم تبع « سيدوروف » ، الذى فتح بابا ضخما ، أفضى بهما الى الردهة التى كان « نيكلودوف » قد شاهد فيها تمثال السيد المسيح .. وصعد الاثنان درجا ، ثم توقفا على عرصة ضيقة ، ونفذا خلال باب حديدى ثقيل ، الى قاعة شطرها حاجزان من القضبان الحديدية ، على نسق قاعة الاستقبال فى سجن الرجال .. كان كل شىء فى القاعتين متماثلا تماما ، مع فارق واحد : هو أن الحراس استبدلوا بحارسات ارتدين زيا ذا أزرار معدنية لامعة .. وكان عدد السجينات أقل كثيرا من عدد الرجال المسجونين ، فلم يتجاوزن اثنتى عشرة سجينة !

وكانت هناك سجينة عجوز تتحدث ، من وراء القضبان ، مع شاب بدا من المرجح أنه ابنها . وانهمكت امرأة من الغجر فى حديث مع غجرية أخرى ـ جاءت تزورها ـ معززة حديثها بحركات من يديها .. وأخذت فتاة مكتنزة ، بيضاء الوجه ، ممتلئة الخدين ، تتبادل الحديث مع امرأة شرسة الشكل ، مفرطة النحول ، وقد ارتدت أجمل ما تملك من ثياب ، وحملت بين ذراعيها طفلا رضيعا .. وكان يبدو أنها والفتاة من أهل الريف ..

كذلك كانت هناك امرأتان أو ثلاث أخريات ..

ثم هذه « هى » .. أخيرا !

● ●

● **لم يلمحها** « نيكلودوف » ـ فى البداية ـ اذ كانت متوارية جانبا ، خلف السجينات الأخريات ، اللائى التصقن بالقضبان.

وسأله الحارس الذى رافقه : « عمن تبحث يا سيدى ؟ »

فأجاب بعناء ، وكأن شفتيه كانتا تأبيان النطق بالاسم : « كاترين ماسلوفا » .

واذ ذاك ، صاح الحارس مناديا : « كاترين ماسلوفا !.. هناك شخص يطلبك ، أسرعى بالحضور ! »

ثم تحول يثرثر مع الحارسات .. اذ ذاك فقط ، وقع بصر « نيكلودوف » على « كاتوشا » ، اذ ابتعدت عن النافذة التى كانت تقف بجوارها ..

وتقدمت نحو القضبان ، فوقفت بجانب الغجرية ، فى الوقت الذى تحول فيه « نيكلودوف » ـ هو الآخر ـ عن مكانه بسرعة ، ليقف فى مواجهتها . ولم يمنعه الحاجزان الحديديان ـ اللذان كانا يفصلان بينهما ـ عن أن يلحظ بوضوح امارات الفضول الشديد التى ارتسمت على وجهها ، وأطلت من عينيها .

وصاح نيكلودوف : « كاتوشا !.. هذا أنا يا كاتوشا » .. ثم سكت ، دون أن يتمكن من اتمـام جملته ، وهو يرتجف ، ويبذل جهدا كبيرا ليسيطر على انفعاله .

قالت كاتوشـا مبتسمة : **« ولكن من أنت ؟.. لست أعرفك ! »**

وأخذت تتأمله طويلا ، دون أن تتمكن من معرفته .. ومع ذلك فقد كانت بادية السرور ، اذ أقبل لزيارتها مثل هذا الرجل ذى المظهر الأنيق والملابس الفاخرة .

ــ أننى « نيكلودوف » !.. ديميترى ايڤانو ڤتش نيكلودوف .. أنظرى الى جيدا يا كاتوشا !

ودون أن ينتظر الاجابة ، قال فى نفسه : « أجل ، اننى أسلك الطريق السليم دون شك .. اننى أعمل ما يمليه على واجبى ، وقد جئت لأعترف لها بذنبى ! » .. وقفزت الدموع الى عينيه ــ لهذه الفكرة ــ وشعر بغصة فى حلقه ، فتشبث بالقضبان ، وأجهش بالبكاء .

وعندئذ أشرق وجه « كاتوشا » ــ المضنى ، الشـديد النحول ــ فجـأة ، اذ أومضت بذهنهـا بارقة ذكرى أثارت اضطرابها ، فالمعت عيناها وتضرج وجهها بحمرة .. لكنها لم تكن تلك الحمرة المشرقة ، القانية ، التى كانت فيما مضى تلهب خديها الجميلين ، الشبيهين بخدى الطفل .. وانما حمرة شاحبة ، خففت قليلا من صفرة وجهها الذابل ، وانتشرت فيه . وازدادت « كاتوشا » التصاقا بالقضبان ، وتشبثت بها هى الأخرى ..

وتجلت لها الحقيقة واضحة !

على أنها لم تكد تتعرف على الرجل الواقف أمامها ، حتى تجهمت ، وابتعدت عن القضبان ، بينما راح « نيكلودوف » يصيح :

ـ كاتوشا !.. تكلمى يا كاتوشا !.. انك عرفتنى ، أليس كذلك ؟

ـ نعم !.. وماذا بعد ذلك ؟.. ماذا بعد ذلك ؟.. اتركنى وشأنى يا ديميترى ايفانوفتش ! وانصرف !

ولكنه لم يتمكن من سماع ما قالت ، اذ كانت الغجرية ـ الواقفة بجوارها ـ ترفع صوتها باطراد . وكان لزاما على المرء أن يصيح حتى يبح صوته ، لكى يسمعه الآخر .

قال « نيكلودوف » فى نفسه : « يا الهى !.. كيف أقوى على أن أقول لها ما أريد ، بصوت مرتفع ؟ » . ولكن فكرة أخرى داهمته فجأة ، فقال يحدث نفسه : **« عليك اليوم أن تعترف بذنبك جهارا ، ما دمت لم تخجل من ارتكابه فى الماضى ! »**

ودون أى تردد ، وتلبية لصوت ضميره ، أخذ يقول بصوت مرتفع : « كاتوشا !.. لقد أتيت الى هنا لأطلب منك الصفح . اغفرى لى يا كاتوشا ! اصفحى عنى !.. اننى مجرم !.. مجرم الى درجة لا أظننى قادرا معها على اصلاح خطأى .. ولكننى أتوسل اليك أن تصفحى عنى رغم كل شىء ! »

وأخذت العبرات تخنقه من جديد .. حتى اذا عجز عن النطق بأية كلمة ، سكت تماما ، وقد تقلص وجهه ..

وصاحت « كاتوشا » من ناحيتها : « لست أسمع ما تقول ! »

● ●

● **ولكن** « نيكلودوف » كان فى حال من التأثر والانفعال ، عجز معها عن السيطرة على مشاعره ، فابتعد عن القضبان محاولا أن يستعيد بعض هدوئه .. واذ ذاك ، تقدم اليه الحارس ـ الذى كان قد قاده الى سجن النساء ـ وقد بدا واضحا أن مسلكه أثار اهتمامه .. واذ وجده يقف منكس

الرأس ، بعيدا عن القضبان ، سأله عن سر عدم تبادله الحديث مع المرأة التى حضر لرؤيتها ؟

ـ ذلك لأنه من المستحيل أن أقول لها ما أريد ، من خلال القضبان .. اننى مضطر الى أن أفسر لها أمورا كثيرة ، ولكنها لا تسمع شيئا ، بسبب الضوضاء !

وأخلد الحارس الى التفكير لحظات ثم قال :

ـ ما دمت فى حاجة ملحة للتحدث معها ، فمن الممكن أن نأتى بها الى هنا ، ولكن .. لفترة قصيرة !

واستدار الحارس نحو احدى الحارسات ، قائلا :

ـ هل لك يا « نازاروفا » أن تحضرى السجينة « ماسلوفا » الى هنا ؟

ثم قال محدثا نيكلودوف ، وهو يبتسم ابتسامة الشريك فى جريمة : « هذا أدعى لراحتك ! »

وجاءت « كاتوشا » ـ بعد دقيقة ـ لمقابلته ، منتعلة الحذاء الطويل الخاص بالمسجونات ، ومرتدية المعطف الذى رآها فيه فى قاعة المحكمة . وكانت محتفظة برشاقة خطواتها. وعندما اقتربت من « نيكلودوف » ـ وهى منكسة الراس ـ وضعت يدها فى يده .

وقال لها بعد سكون اليم : **« لقد جئت يا كاتوشا أناشدك الصفح ، اذا كان هذا فى امكانك .. أعنى اذا لم أكن أثير اشمئزازك ! »**

ـ اذن ، فقد جئت لتسأل عن أخبارى ؟

ألقت « كاتوشا » هذا السؤال ، وكأنها لم تفهم ما قال .. ثم أردفت : « ها انتذا ترى أين أنا الآن ! » .. وما لبثت أن أضافت ، وهى تبتسم بلا مبالاة : « أما كنت تتوقع هذا ؟ »

وانطلق « نيكلودوف » قائلا بحرارة : « ولكن يا كاتوشا

.. ألم تسمعي ما قلت ؟.. انني أقول : اغفـــرى لى .. وأسألك : هل تقبلين الزواج منى ؟ »

ورفعت رأسها نحوه ، ورمقته بنظرة امتزج فيها الفضول بالقلق .. ولمعت عيناها برهة وجيزة ، ثم صاحت : « لماذا تنطق بهذه الحماقات ؟.. الا تستطيع حقـا أن تجد زوجة غيرى ؟.. لا تمزح ! اذا كنت راغبا فى أن تؤدى خدمة لى ، فاعطنى بعض النقود ، اذ لم يعد لدى شاى ولا تبغ ، ولست أطيق البقاء دون تدخين . اعطنى نقودا ، اذا شئت ، وسيكون هذا كرما منك ! »

وأخذ يحملق فيها جزعا ، وهو صامت .. فعادت تقول :

ـ من المستحيل تماما أن يكتسب المرء درهما هنا ، كما ترى .. فالحراس أوغاد ، يسعون الى كل ما لديك ، دون أن يدفعوا شيئا . لعلك الآن تفهم !

ـ اغفرى لى يا « كاتوشا » ، فأنا أشعر الآن بمدى جرمى !

فصاحت ، وقد تضرج وجهها ، وغضت بصرها : « عجبا ! .. ما الذى يدعوك الى طلب مغفرتى باستمرار ؟.. ليس لأحد ذنب فى شىء !.. ألا فلتعلم انه قدرى !.. هكذا قدر لى ، ولست أتهم أحدا !.. انه أمر لا يستحق الحديث عنه ! »

وعلى الرغم من كل ما كان بوسعه أن يقوله لها ، فقد ظلت ترمقه من طرف عينها فى صمت . فقال فى نفسه : « ما هذا الا لأنها لا تستطيع أن تغفـر لى !.. من الواضح أن كلامى لن يصلح حياتها التى فسدت ، وهى توقن من هذا ، ولكنها لا تريد أن تقوله فى وجهى ... »

ولكنها ـ فى الواقع ـ لم تكن تفكر فى ماضيها .. كان حاضرها وحده هو الذى يشغلها ! لقد تملكتها دهشة بالغـة منذ رأته . هذا كل ما فى الأمر . فما كانت تتذكر من حبهـا

القديم سوى صورة مبهمة ، شيء ضائع فى الماضى ، وكأنما الأمر يتعلق بامرأة أخرى ، ولا شأن له بها البتة .. فهو لا يؤثر فيها بشيء !

وأومضت بارقة أضاءت ذكرى الماضى فى وعيها ، ولكنها سرعان ما اختفت كالبرق ، لتفسح المجال لأتفه الرغبات . لم تكن تبغى – فى تلك الآونة – سوى القهوة أو الشاى ، والسكر ، والنبيذ أيضا ، اذا أمكن .. والتبغ قبل كل شيء ، فما كانت لتستغنى عنه !

أما عواطف « نيكلودوف » النبيلة ، وندمه ، ونيته فى الزواج منها .. فما كان كل هذا ليستهويها أتفه استهواء .. بل كانت كلها أمورا عسيرة الفهم والاستيعاب !

بل انها لم تجشم نفسها عناء التغلغل وراء معانى كلماته الغريبة ، الغامضة ، والتعرف على البواعث التى دفعت « نيكلودوف » الى التصرف على هذا النحو .. فراحت تنتظر – نافدة الصبر – أن يفرغ من حديثه ، حتى يتسنى لها أن تطلب منه نقودا ، فما كانت – اذ ذاك – تفكر فى شيء أكثر من النقود !

وراح يصف لها أشجانه وعذابه ، عندما عاد الى بيت عمتيه – بعد الحرب – فعلم أنها رحلت دون عودة ، وهى حامل .. وأخذت ترمقه – طيلة هذه الأثناء – دون أن تحول بصرها عنه ، وان راحت أهدابها تخفق .. وفى احدى اللحظات ، قطعت عليه حديثه لتقول بصراحة :

– كل هذا ماض لم أعد أتذكره !.. انه لا يستحق عناء الاطالة فى الحديث عنه !

اذ ذاك ، أمسك يدها وضغطها بين راحتيه فى وجد ، وهو يقول : « انك تعذبت كثيرا ، أليس كذلك ؟.. أواه ،

يا كاتوشا !.. لابد من أن تصفحى عنى !.. اصفحى .. أجل ، أصفحى عنى ! »

قالت ، وهى راغبة فى انهاء هذا الحديث ـ الذى لم يكن مجديا ، فى رأيها ـ لتبدأ حديثا أكثر أهمية بالنسبة لها : « ماذا أستطيع أن أفعل ؟ »

فسألها متلعثما فى خجل : « ولكن الطفل .. طفلنا ، أين هو ؟ »

وذهلت لسؤاله ، ثم أجابت باقتضاب : « الطفل ؟.. لقد مات بمجرد أن ولد ! »

وفجأة ، بدلت لهجتها ، وهى تسترسل قائلة : « لم أعد أتذكر شيئا . لقد نسيت كل شىء .. بل اننى لا اود ان اعود للتفكير فيه !.. اسمع ، أعطنى نقودا ، فبالنقود يستطيع المرء شراء كل شىء هنا . اننى أموت شوقا الى اشعال سيجارة ! »

وتراجع « نيكلودوف » خطوة ، وراح يحملق فى عينيها بأسى بالغ .. وقابلت نظراته بابتسامة واهنة ، كشفت عن الفراغ الذى خلفته السنان الغائبتان عن فمها . ثم قالت : « انه حكم العادة !.. ما رأيك فى أننى أفضل أن أجوع على أن أحرم من التبغ ! »

فقال « نيكلودوف » ، وهو ينتزع حافظة نقوده من جيبه : « سأعطيك ما تشائين حالا ! »

ـ أعطنى أولا بعض النقـود ، بحيث يراها الحارس . وسوف يردون لى هذه النقود فيما بعد ، عندما يحدد تاريخ رحيلنا الى سيبيريا .. ثم ، دس فى يدى خلسة ـ بعد ذلك ـ مبلغا صغيرا ، دون أن ينتبه أحد . كن شديد الحذر .. هكذا ! شكرا يا عزيزى ، شكرا جزيلا !

وقال « نيكلودوف » فى سريرته : « يا الهى ! أين هى ؟..

ما الذى دها « كاتوشا » التى عرفتها فيما مضى ؟.. لست أرى أمامى سوى امرأة ميتة .. جثة حية ، مشوهة أبشع تشويه !.. وأنا الذى فعل بها هذا كله ! »

وتحول اليها قائلا : « اسمعى يا كاتوشا !.. سأفعل عن طيب خاطر كل ما ستطلبين منى ، ولكنك لم تذكرى بعد الشيء الوحيد الذى يهمنى !.. انك لم تجيبى بشيء عن الأمر الذى سألتك بصدده . هل تقبلين الزواج منى ؟.. صارحينى ، هل تقبلين ؟ »

ورفعت رأسها ، وابتسمت .. كانت ابتسامة مغتصبة ، آسية .. وازداد زيغ نظراتها عن ذى قبل ، وهى تسأله : **« أهذا ممكن ؟ »**

ـ أجل ، أجل .. أؤكد لك انه ممكن . اننى لا أدرى رأيك أنت فى هذا . اما من ناحيتى ، فلن يكون لى ـ بعد اليوم ـ من غاية سوى أن أخدمك ، وان أخفف من عناء الحياة عنك ، وأمحو ـ ما استطعت ـ ما ألحقت بك من أذى !

ـ اذا لم تكن تهزأ بى .. فلم لا ؟.. هذه مسألة مألوفة هنا . وقد رووا لى ـ بالأمس فقط ـ أن احدى السجينات تزوجت هنا بالثلاث !.. ألا قل لى ، هل تعلم متى سنرحل من هنا ؟

ـ كلا . لست أعرف شيئا بعد . ولكن ، أجيبى ـ قبل كل شيء ـ عن سؤالى بطريقة أكثر تحديدا : هل توافقين على الزواج منى ؟

قالت وهى تهز رأسها : **« ما أغربك من رجل !.. اننى أود أن أعرف : ما حاجتك الى المرأة التى أصبحتها ؟ »** .. وعادت تبتسم ، وهى تقول : **« أتعلم ـ مثلا ـ اننى سأقصى الى سيبيريا ؟ »**

ـ أجل ، أعلم .. وسيكون من دواعى غبطتى أن أذهب معك الى هناك !

وبينما كانت تبدو وكأنها تصغى اليه ، كان كل كيانها يهفو الى شىء وحيد : أن تدخن سيجارة ، وأن تروى ظمأها بقدح من النبيذ !

ومع أنها فهمت تماما كل ما كان « نيكلودوف » يقول ، فانها لم تأخذ كلامه على أنه يتعلق بها فى شىء ، بل ولا به هو !.. فما كانت ترى أية رابطة بينها وبين الماضى !.. كان الأمر كله ـ فى اعتبارها ـ يتعلق بشىء آخر .. بامرأة لم تعد تعرفها !.. لذلك لم تلبث أن قالت : « انك تتكلم دائما عن أمور غريبة ! »

وكان منظرها يثير القلق ، بمعطفها القبيح ، ووجهها الشاحب ، والجيوب المنتفخة تحت عينيها ، وبغياب كل مظهر للنشاط الذهنى ، وكل « تعبير » فى نظراتها الشاردة .. حتى ليخال المرء ـ لأول وهلة ـ أنها مجردة من العقل !.. على أن الغريب حقا ، هو أن كل هذا لم ينفر « نيكلودوف » منها ، بل زاده تشبثا بها ، وكأنما كانت تربطه بهذه المرأة الضائعة ، قوة جديدة وفذة !

وفى وعيه التام لكل ما كان عليه أن يفعل ، أحس بأن غايته ـ منذ الآن ـ هى أن يوقظ بحبه هذا الحطام البشرى ، وأن يبعث الدفء فى حياته .. كان عليه ـ منذ اللحظة الراهنة ـ أن يستغل كل وسيلة ممكنة لبعث « كاتوشا » الى الحياة . ولم يعد يبغى أى شىء لنفسه ، فما عاد يشتهى سوى أن ينتشل « كاتوشا » ، بانصرافه بكل نفسه ـ ودون ما تحفظ ـ الى مهمته الجديدة !

ــ اننى أدرى الناس بك ، وبأية امرأة أنت .. اننى أذكرك ، وأذكر قلبك بوجه خاص .. قلبك كما كان عندما التقينا لأول مرة !

وأردف قائلا : « وأنت يا كاتوشا .. ألم تعودى تذكرين هذا ، أنت الأخرى ؟ »

فأجابته : « لا جدوى البتة من أن أتذكر هذا ! »

ــ أما أنا ، فلن أجد قط امرأة أفضل منك .. اننى لا أريد الزواج منك فحسب ، بل اننى أرانى غير جدير بك .. وبصفحك !

قالت ، بنفس صوتها الخالى من أى تعبير : « كل هذا لا يعنينى .. كل ما أطلبه منك الآن ، هو : النقود ! » .. وهمست اذ لمحت ــ من ركن عينها ــ أن الحارس بعيد ، فى الطرف الآخر من القاعة : « أعطنى مبلغا آخر صغيرا ! »

فأخرج من جيبه ورقتين من فئة الثلاث روبلات ، ودسهما فى يدها . فقالت بصوت خافت : « هذا لطف منك ، لطف بالغ ! » .. وبحركة ماكرة ــ لا تجيدها الا المحترفات ــ أخفت الورقتين فى كمها . ثم قالت : « اسمع !.. تعال لزيارتى يوم الخميس القادم ، اذا لم تكن هناك شواغل تمنعك !.. سيكون هذا من دواعى سرورى . أواه ! لكم أود أن أرحل بأسرع ما يمكن !.. ليس بوسعك أن تتصور مدى فسقهم هنا ! »

وفى تلك اللحظة ، أقبلت احدى الحارسات لتقتاد « ماسلوفا » . وفكر « نيكلودوف » لحظة .. لم يدر ما اذا كان ينبغى أن يودع « كاتوشا » بقبلة ، أو يكتفى بمصافحتها ؟ !

وظلت واقفة أمامه ، وعلى محياها امارات الانتظار .

وفجأة تضرج وجهه ، كما تضرج وجهها .. تماما كما حدث يوم التقيا وراء شجيرة « الليلا » ، قبل اربعة عشر عاما !.. ولكن عواطفهما ـ فى هذه المرة ـ كانت مختلفة !

وبشىء من التردد ، أدرك « نيكلودوف » أنه لا ينبغى له أن يقبل « كاتوشا » أمام الملأ ، فاكتفى بأن ضغط على اليد التى ظلت كعهده بها ، متماسكة ، لطيفة . وقال لها :

ـ الى اللقاء يا كاتوشا !.. سأعود لزيارتك بعد أيام !

وما لبث الحراس أن قادوا المسجونين الى زنزاناتهم ، وسرعان ما امتلأ الجو بصليل السلاسل . ومن جديد ، شرع الجنود يحصون الزائرين فى عناية ودقة ، حتى لا يبقى غريب داخل السجن ، أو يهرب مسجون !

وقبل أن يبرح « نيكلودوف » المكان البغيض ، زار المدير ليسأله عن الاجراءات الرسمية التى ينبغى اتخاذها ، للزواج من احدى نزيلات السجن . وبالرغم من أنها كانت كثيرة العدد ، فانه اخذ يكتبها بعناية ، ثم بادر لفوره الى ملء صيغة رسمية مطبوعة (استمارة) .

● ●

● **أخذت** (موسكو) ـ فى تلك الفترة ـ تخلو من سكانها شيئا فشيئا ، اذ كان الجميع يسارعون بالسفر لقضاء عطلاتهم .

وغادرت أسرة « كارمالين » المدينة ـ هى الأخرى ـ وأفرادها فى استياء بالغ من « نيكلودوف » ، الذى مكث وحيدا ـ مع مربيته العجوز ـ فى انتظار اكتمال الخطوات المتعلقة بزواجه من « كاتوشا » ، وسفره معها الى (سيبيريا) .

ولم يخطر ببال « نيكلودوف » قط ان يرجع عن قراره ، منذ اتخذه .. بل انه كان – على النقيض – يشعر مع مرور الأيام ، بغبطة وهناءة تتزايدان باطراد ، وتملآن قلبه براحة ورضى لم يعرفهما من قبل !

أما « كاتوشا » ، فقد ظلت محتفظة باستمرار بذلك المظهر الذى يوحى بشىء من عدم الادراك . بيد أن منظرها المثير للنفور ، زاد من قوة الحب النقي الطاغى الذى تملك « نيكلودوف » .. ذلك الحب النزيه ، الذى لم يكن يطمع فى أى جزاء ! .. ذلك لأن الشاب لم يعد يسعى الى متعة ، ولا الى أرضاء لذاته ، انما بات كل ما يرجوه ان يسعد سواه ! .. كان شعوره شبيها بذلك الذى يساور رجلا يضم الى صدره مخلوقا حرم من الحياة ، محاولا أن يبث فيه من الدفء ماينقذه بأى ثمن . وكان كل يوم ، بل كل ساعة ، تذكى فى نفسه هذه الجذوة المتوقدة .

ولكن هذا الحب المتجرد لم يشعره بأية متعة خاصة .. ففى مثل هذه الأحوال ، لا يبعث هذا الحدث فى نفس المرء من السرور ، قدر ما يبعث من أحاسيس رقيقة متسامية .. لهذا أحس « نيكلودوف » براحة نفس ، أوحت اليه اعتقادا راسخا بأنه انما كان يؤدى واجبه ، وانه ما كان يملك يوما أن يفعل خيرا مما كان يفعل اذ ذاك !

وكان يحدث نفسه بأنه اذا نجح فى ايقاظ مشاعرها ، وفى احياء ذكريات الماضى الناعمة فى ذاكرتها ، وفى أن يحيى فى فؤادها مجرد الشفقة – وليس الحب – نحو الرجل الذى كان سببا فى ضياعها .. اذا أفلح فى هذا ، فانه يكون قد حقق

سعادة لا سبيل الى وصفها .. غبطة كان يرى نفسه غير جدير بها !

ومع ذلك ، فاذا قدر لجهوده أن تظل بلا ثمرة ، فستبقى « كاتوشا » دائما زوجته ، وصديقته الوحيدة ، التى يكرس لها كل حبه وكل رعايته ، مهما تكن الظروف .. وكان هذا كافيا لأن يملأ حياته !

● ●

● **الى جانب** التدابير المتعلقة بالزواج ، استحوذت شواغل أخرى على عقل « نيكلودوف » . وكانت هذه الشواغل تتصل مباشرة بمشروعاته الاجتماعية ، التى عادت الى الحياة بقوة غير عادية ..

ذلك أنه عقد العزم - وهو على أعتاب تغير جذرى فى حياته - على أن يتخلى نهائيا عن دوره كمستغل للعبيد . ولما كان قد أعد مشروعاته فى هذا الصدد ، بكل تفصيلاتها ودقائقها ، فقد قرر أن ينتهز الأيام القلائل المتبقية من حريته ، ليزور ضيعة (ريازان) التى ورثها عن عمتيه ، والتى لم تكن تبعد عن (موسكو) كثيرا .

أما ممتلكاته الأخرى - التى كانت تقع فى اقليمى (نيجنى نوفجورود) و (سمارا) - فقد راوده الأمل فى أن يستطيع زيارتها فى شهر يوليو ، قبيل سفره الى (سيبيريا) ، حيث يسوى شؤونه بسرعة .

وكانت ضيعة (ريازان) تناهز ثمانمائة هيكتار من الأراضى الخصبة الممتازة . ومع انه كان من العسير - ان لم يكن من المستحيل - أن توجد فى روسيا بأسرها أراض أكثر



.. ذلك أنه عقد العزم ـ وهو على أعتاب تغير جذرى فى حياته ـ على أن يتخلى نهائيا عن دوره كمستغل للعبيد !

خصوبة وأيسر فلاحة من أراضى تلك المنطقة ، فان فلاحيها كانوا يعيشون فى أسوأ حالات مادية ومعنوية عرفها فلاحو روسيا .. ومن ثم كانت قسوة عبودية الأرض هناك أكثر وضوحا ، وأثقل وطأة منها فى أى مكان آخر .

واذ لم يكن فى الوقت متسع يذكر ، فقد دعا « نيكلودوف » جميع مزارعى القرية — فى يوم وصوله الى (پانوڤو) بالذات ، (وهى مركز ضيعة (ريازان) التى ورثها عن عمتيه) — وبادر بمصارحتهم بأنه لم يعد — منذ ذلك اليوم — سيد الضيعة ، اذ أنها أصبحت ملكا خالصا لهم !

واشتدت دهشته حين لاحظ أن تحمس الفلاحين للنبأ كان دون ما توقع بكثير . ذلك لأن فلاحى (پانوڤو) — وان كانوا دون « نيكلودوف » فى الالمام بالنظريات — كانوا يفوقونه خبرة وتجربة . وقد أدركوا أن مجرد منحهم الأرض لم يكن كفيلا بحل مشكلاتهم المستعصية .. وهذا ما لم يفقهه « نيكلودوف » الا بعد وقت طويل . أما فى اللحظة الراهنة ، فما أن أتم مهمته التقدمية هذه ، حتى بارح المكان بضمير مستريح ، موقنا من أنه قد بذل خير ما فى وسعه لارضاء أمانى الفلاحين ..

وبالرغم من الفرحة الطاغية التى بثها فى نفسه الشعور بأنه حقق — أخيرا — مايتجاوب تماما مع مثله العليا فى الاصلاح الاجتماعى ، فان قلقه كان يزداد كلما فكر فى مستقبله المادى .. كان على وشك أن يصبح بلا ثروة اطلاقا ، وهو الذى اعتاد — منذ نعومة أظفاره — حياة الترف .. فضلا عن العناية بامرأة عليه أن يعولها .. امرأة كانت تعتقد أنه غنى ، وخليقة

بأن تكبده ـ وهى المعتلة الجسم ، والأعصاب ـ نفقات ما كان بوسعه ، فى لحظته الراهنة ، أن يقدر مدى ضرورتها الماسة .

على أن هذه الهموم لم تلبث ـ لحسن الحظ ـ أن تبددت بأسرع مما كان يظن : ذلك انه وان نزل عن كل الأرض للعاملين عليها ، فقد احتفظ بملكية القصر ومعمل التكرير القائم بالقرب منه .. والواقع أنه لم يكن يدرى ما يفعله بهذا أو ذاك ، لذلك فما أن ظهر مشـتر ـ كان فلاحا ثم أثرى ـ وعرض على « نيكلودوف » ألفى روبل ، فى مقابل البيت والمعمل ، رغبة فى أن يزيلهما ويشيد فى مكانهما منشأة أكثر ربحا .. حتى بادر من فوره الى قبول العرض ، اذ بدا له المبلغ معقولا ، وكافيا ـ فى أى الأحوال ـ لتغطيـة نفقات السـفر والاستقرار فى (سيبيريا) مع « كاتوشا » ، فضـلا عن نفقات نشر بحثـه الاجتماعى ، الذى أصبح يفكر فيه أكثر من ذى قبل .

وزار القصر للمرة الأخيرة ـ عشية سفره من (پانوڤو) ـ ليودع كل ما كان مقبلا على فراقه الى الأبد . وبالرغم من أن كثيرا من التحف الفنية قد سرق فى السنوات السابقة ، فقد ظل هناك عدد كبير من التحف التى كان « نيكلودوف » ـ الى زمن قريب جدا ـ مشغوفا بها .. بيد أنه دهش للفتور الذى راح يرمقها به ، وهو يراها لآخر مرة .. انه ما كان فيما مضى يتصور أن يأتى يوم تصبح فيه المقاعد ـ المصنوعة من خشب (الماهوجنى) ، والمزخرفة بنقوش ذهبية ـ والمائدة المصنوعة من خشب ثمين ، والخزانة المقوسة البديعة ، المزدانة برأس أسد يضم فكيه على خاتم جميل .. ما كان يتصور أن يأتى يوم تصبح فيه هذه التحف ملكا للفلاح « بيليائيف » !

على أن كل هذا تراجع الى ركن قصى من ذهنه ـ فى تلك اللحظة ـ وبهت ، وتحول الى صورة غير ذات معنى من صور الماضى الذى أخذ يتلاشى ، مفسحا مكانه للمستقبل الذى تبدى له مشرقا ، بهيجا ، مليئا بكل الهناء المرموق .. **حتى ليقال انه كان يتأمل الحياة ـ الى ذلك الوقت ـ وهو منكس الرأس ، فلم ير سوى أشياء تافهة ، زائلة .. فى حين أنه ـ وهو يتقدم الآن رافع الرأس ، مفتوح العينين ـ أخذ يبصر آفاقا لا تحجبها حجب ، تنفتح أمامه ، أفقا وراء أفق ، تاركة كل ما كان يهتم به ـ فى الماضى ـ حبيسا فى دائرة ضيقة !**

واذا كان « نيكلودوف » قد أقبل ـ فى تلك اللحظة ـ على التنقيب فى خزانة عمته « صوفى ايفانوفيتش » بكثير من التحمس ، فانما كان يأمل أن يجد فيها شيئا يتعلق بكاتوشا . غير انه ـ للأسف ـ لم يجد ذكرا لاسم « كاتوشا » فى رسالة واحدة من حزمة الرسائل الضخمة ، التى عثر عليها فى الدرج الأسفل .. وان كان قد عثر ـ فى مكان آخر ـ على رسالة من احدى صديقات عمتيه ، تستنكر فيها جحود «الفتاة التعسة» نحو السيدتين اللتين أحسنتا اليها ، واللتين لم تكونا تبغيان سوى خيرها !

ولم يكن فى « مقبرة الرسائل » هذه ، شىء يستحق الاهتمام . بيد أنه عثر فى أحد الأدراج ـ وسط مجموعة من حافظات النقود القديمة ، والأكياس ، والنظارات ، وقطع من الورق المقوى ـ على صورة فوتوغرافية باهتة بفعل الزمن ، وقد انزوت فى كراسة للكتابة . وكانت الصورة تمثل مجموعة من الناس ، وقد التقطها أحد الجيران ، من هواة التصوير ..

كانت العمتان ـ فيها ـ تجلسان فى الشرفة ، وعند اقدامهما ، على احدى درجات السلم ، شاب طويل الشعر ، بغير لحية ولا شارب ، لا يكاد يتجاوز السابعة عشرة من العمر ، وقد أوتى وجها يشع طيبة ، وبراءة ، ومرحا . وفى المؤخرة ، وقفت بين العمتين فتاة فى مرولة بيضاء ، بدا أنها كانت تبذل جهدا فى كتمان الضحك .

.. ولم تكن الفتاة الرائعة سوى .. كاتوشا !

وقال ، وهو يدس الصورة فى جيبه : « سأريها هذه الصورة ! »

● ●

● **وأخيرا** ، بعد أن رتب شؤونه كيفما اتفق ، رجع الى (موسكو) بعد غياب استمر ستة أيام ..

وما أن اغتسل وبدل ثيابه ، حتى أسرع الى السجن . ولفرط أسفه ، وجد « كاتوشا » على حالها من الفتور . **فما ان بدأ يحدثها عن (پانوفو) ، حتى أظهرت الاستياء ، وأخذت تردد فى اصرار ، دون أن تبدى رغبة فى الاستماع لأى شىء من الذكريات الناعمة التى أثارها « نيكلودوف » :**

ـ لا أذكر شيئا .. ما دمت قد نسيت كل شىء ، فليس من المجدى أن تذكرنى ...

كذلك لم تبد أية رغبة فى رؤية الصورة .. التى تركها ـ برغم ذلك ـ فى « الزنزانة » الخاصة ، التى كانت « كاتوشا » قد نقلت اليها ، بفضل تدخله .

ورجع الى السجن فى اليوم التالى ، وكان من أيام الأحد ، فى بداية شهر يونيو .. كانت الأمسية رائعة ، برغم الحر

الشديد السائد فى وسط المدينة ، بحيث كان يصعب على المرء أن يتنفس فى الشوارع الا فى الظل ..

ووراء نوافذ المتاجر ذات الزجاج اللامع ، كانت الفواكه بكافة الألوان البراقة ، والزجاجات بأشكالها المبتكرة ، تجتذب الأنظار ، وكميات كبيرة من السلع منسقة بحيث تثير الانتباه .. وكان رجال الشرطة — فى زيهم الخشن — يقفون فى وسط الميادين وقد استلت حرارة الشمس من أجسامهم كل نشاط ، أو يتمشون الهوينى على الأرصفة . وكان الحوذية يغفون — على مقاعدهم — فى انتظار راكب تسوقه المصادفة ، وهم فى أقمصة زرقاء يجللها الغبار ، وقبعات من الجلد مستديرة .. ومن وقت الى آخر ، كانت احدى مركبات السادة الفخمة تمرق فى جلبة .. بينما ترن أجراس مركبات الترام — التى تجرها الخيل — عند مفترقات الطرق أو ملتقياتها ، وقد ارتدى محصلوها وسائقوها زيا خشنا كذلك .

وهذا شاب ارتدى سروالا قطنيا أبيض ، التصق بساقيه اذ انكمش من كثرة الغسيل .. وتلك سيدة — أو عانس — بشعة البدانة ، فى ثياب وردية ، تكشف عن معظم جسمها ، وقد حملت مظلة ذات زوائد (شرابات) وأخذت تجتاز الشارع ، وكلها ثقة فى أنها ستثير اعجاب الناس بأناقتها !

وأمام الباب المخصص لدخول العربات — فى بيت فخم ، ذى أحجار مربعة مطلية بالجير — جلس بواب يتطلع الى أطفال يلعبون لعبة الخيول الصغيرة ، على مقربة منه .. وخلال نوافذ البيت الواسعة ، المفتوحة ، كان المرء يلمح مسكنا فخم الرياش ، ذا ثريات ضخمة يعلوها نسيج شفاف ، وقد كسيت

مقاعده بأغطية لوقايتها .. وعلى أرض الشارع ـ المرصوفة بالأحجار ـ كان بائع ثلج بدين ، يدفع عربة صغيرة مليئة بسلعته ، وهو يتصبب عرقا . بينما أخذ الأطفال يرتعون فى الحدائق العامة ، وأهلهم أو مربياتهم لا يكفون عن زجرهم !

وكانت أشجار الحور والصفصاف تهز أغصانها الوفيرة ، من فوق أسوار المنازل ، وكأنها تحيى المارة . وعلى أحد جانبى الطريق ، قام متنزه عام ، وافر الظلال ، عليل النسمات .. بينما راح عمال رصف الطرق يكدحون على الجانب الآخر ، تحت وهج الشمس ، غير مبالين بأن اليوم كان يوم العطلة الأسبوعية ، وقد أحاطت بهم طبقات من الغبار .

وسار فى الشارع رجل مكتنز الجسم ، فى حلة من قماش خفيف ، ذى لون أصفر زاه ، وقد انتعل حذاءين من الصوف .. وفى أثره متسول حافى القدمين ، ذو وجه بدين أحمر ، وقد ارتدى سروالا وردى اللون ، ممزقا عند الركبتين !

وأخذ الجو يزداد حرارة ، و « نيكلودوف » يسير عبر المدينة ، مجتازا الشوارع والميادين ، متأملا كل ما يجرى حوله .. ماضيا ـ على قدميه ـ الى السجن ، ليحدد مع القس يوم الزواج . فمنذ بات هذا الأمر مفروغا منه ، لم يخالجه الشك قط ، ولم يعد يفكر الا فى أنسب الطرق للتعجيل بالاجراءات المملة .

ولم يكن قد التقى ـ منذ فترة طويلة ـ بشخص من الوسط القديم الذى كان ينتمى اليه فى (موسكو) ، التى لم يقم فيها قط أثناء الصيف ـ من قبل ـ فبدت له الآن كصحراء فى حلم ، نتيجة محتومة للحالة النفسية التى كانت

تسيطر عليه فى الواقع .. ولا كان قد رأى آل « كارمالين » ، منذ تناول العشاء عندهم لآخر مرة ، يوم صدور الحكم على « كاتوشا » .. ومن ناحية اخرى ، لم يكتب الى « آلين » سوى مرة واحدة ، ردا على رسالة منها أبدت فيها تمنياتها له بحظ سعيد ، فى الاتجاه الجديد الذى اتخذه !.. ولقد قالت — فى هذه الرسالة الأخيرة — انها وان لم تفقه مشاعره الجديدة ، فقد كانت تعرف عن يقين أى الرجال هو ، مما كان يجعلها متأكدة تماما من أن المسألة التى أولاها كل جهوده وتفكيره ، مسألة جديرة بالتقدير . ووجهت اليه — كذلك — خير أمانيها بالنجاح فيها .

ولم يحل استغراقه التام فى ذكرياته ، دون أن يلمح مركبة وقفت فجأة عند ملتقى شارعين ، وهبط منها شخص مسرع .. كان ضابطا فارع القامة ، ذا نظارة . ومرت دقيقة كانت كافية لأن يعرفه « نيكلودوف » ، فاذا به « أورناتوف » ، المستهتر ، الماجن ، الذى يثير الضيق بثرثرته المملة ، ويفرض صداقته على الناس .. وكان « أورناتوف » زميلا له فى الجامعة ، ثم فى الجيش أثناء الحرب .. وقد أقبل عليه هاتفا :

— أهذا أنت يا نيكلودوف ؟ !.. أية ريح طيبة دفعت بك الى هنا ؟ .. يا الهى ، ما أفظع هذا الجو !

— حقا . ان لدى بعض أعمال فى (موسكو) .. وكيف حالك ؟

— لا بأس !.. انك لتعلم كم يسعدنى دائما أن أراك ، لا سيما فى (موسكو) ، وفى هذه الفترة من السنة بالذات .. أن لدى — أنا الآخر — أعمالا فى (موسكو) ، تتعلق بوصاية .. فأنا — اورناتوف — قد أصبحت وصيا !

وعلم « نيكلودوف » — خلال اللقاء — أن الشاب الذى كان قد بدد ثروته جزافا ، يتولى — لسخرية القدر ! — ادارة أموال أسرة غنية ! .. كان هذا الرجل نصف المخمور دائما ،



انطلق رتل المسجونين الذين قضي عليهم بالترحيل الى (سيبيريا) — وبينهم (كاتوشا) — في طريق (نيجني نوفجورود) ، وكان (نيكلودوف) قد سبقهم اليها !

الذى لا تفارق السيجارة ركن فمه ، والذى راح يتحدث فى اسهاب عن الوصاية ، وعن أحسن المطاعم التى يستطيع فيها المرء أن يأكل ويشرب .. كأن هذا الرجل بثرثرته المتواصلة ، وعدم اكتراثه بأى شىء وأى شخص - عدا شخصه الكريم ! - واصطناعه الصداقة .. كان هذا الرجل ، وهذه الأمور جميعا غريبة بالنسبة لعقلية « نيكلودوف » الجديدة ، حتى انه راح يصغى الى « اورناتوف » ، وهو فاغر الفم ، متطلعا اليه وكأنه كائن لم يره ولا عرفه من قبل اطلاقا !

وصاح « اورناتوف » فجأة : « آه ، بهذه المناسـبة .. أصحيح ما يروى عن موضوع زواجك فى السجن من احـدى المعتقلات ؟ .. لقد قالت لى أسرة « كارمالين » هذا . فقل لى : أصحيح هذا أو غير صحيح ؟ .. كن صريحا معى ، كعهدك دائما . وعلى كل حال ، فالجميع يعرفون أنك غريب الأطوار ! »

فبادر « نيكلودوف » قائلا ، ليضع حدا للحديث : « أجل ، أجل .. هذا حق تماما . والى السجن بالذات أنا ذاهب الآن . وأرجو أن تعذرنى .. فان حياتينا منذ اليوم - كما ترى - قد بدأتا تسيران فى طريقين متضادين . ما أحسبك تغضب اذ أقول لك هذا بصراحة ، أليس كذلك ؟ »

- أبدا يا صديقى ! .. اطـلاقا ! ولماذا تظننى عاجزا عن فهمك ؟ .. الأمر على العكس . وأكرر : على العكس . أخشى انك بعد كل تعارفنا ، لم تعرفنى معرفة كافية . على أن هـذا ليس بالأمر المهم حاليا . وداعا يا صديقى .. انها لخسارة ألا نلتقى بعد الآن ، وربما الى الأبد .. ولكن ، هذه ارادة القدر .. الى اللقاء يا صديقى !

● ●

● كان لهذا اللقاء - غير المرتقب - أثر مستحب على نفس « نيكلودوف » ، اذ جعله يدرك كبر المسافة التى أصبحت تفصل بينه وبين معارفه القدامى !.. وبوجه عام ، كان من

المؤلم لنفسه أن أصبح بلا صديق ، محروما من أى شخص يستطيع أن يبادله الأفكار والمشاعر ، بقلب متفتح . أجل ، ان « كاتوشا » ستبقى له دائما ، ولكنها ــ فى نهاية الأمر ــ كانت ما تزال غريبة عنه ، وكأن روحها قد ماتت . وفيما عداها ، لم يعد له أحد ...

وصعد السلم ، واتجه ــ عبر ردهة طويلة ــ الى « زنزانة » كاتوشا . وتبعه كظله حارس حمل مجموعة من المفاتيح .

وقال الحارس : « أخشى أن تكون ماسلوفا متوعكة قليلا !.. والأمر المؤكد ، أنها لم تتناول طعاما ما ، منذ الأمس ! »

ولم يجبه « نيكلودوف » بشىء ، وتوقف الاثنان أمام باب « كاتوشا » . وعبر طاقة فى الباب ، كان من الممكن رؤية الحجرة بأكملها .. **لم تعد « كاتوشا » ترتدى معطف المسجونات ، وانما كانت ترتدى قميصا رماديا ، مخططا ، طلبت بنفسها صنعه لها فى السجن .. وقد نسقت شعرها وفقا لأحدث طراز ، وأحاطت خصرها بحزام عريض .**

وجمد « نيكلودوف » أمام الباب ، وراح يحملق ــ خلال الكوة ــ فى السجينة التى كانت تجلس ساكنة ، وعليها مخايل التعب ، وذراعاها ترتكزان على المنضدة ، وقد اعتمدت رأسها بين يديها .

على أنها رفعت رأسها ، فى اللحظة التى نفذ فيها « نيكلودوف » الى « الزنزانة » ، وتطلعت الى القادم ، ثم عادت تخفى وجهها كذى قبل ، مع فارق مفاجىء .. اذ أن جسدها لم يعد ساكنا ، بل أخذ يهتز من الانفعال وهى تحاول قمع دموعها جاهدة !

وهتف « نيكلودوف » وهو لا يقل عنها تأثرا ، وقد أحس

بصوته يختنق فى حلقه : « كاتوشا ! .. ماذا بك يا كاتوشا ؟ .. اخبرينى يا كاتوشا ، ما الذى جرى ؟ »

ولم تجب ، ولكن الدموع خانتها ، فسالت دون أن تملك امساكها .. وأخذ كل جسدها يرتعش .. وبدون أن تجيب ، وبدون أن تنهض ، بسطت ذراعها اليسرى ، وأشارت له نحو الصورة التى كان قد تركها لها ، فى اليوم السابق !.. وصاحت أخيرا ، وسط فيض دموعها : **« لماذا أحضرتها لى ؟.. لماذا تبغى دائما أن تسىء الى ؟ لماذا ؟ لست أريد أن أذكر شيئا ، وقد قلت لك هذا مرارا عديدة .. والآن ؟ ماذا سنفعل ؟ اننى أسائلك ! »**

وقال متلعثما ، وهو يغالب دموعه بمشقة ، وقلبه يفيض بالسعادة : « الآن ، سيحب كل منا الآخر ، بحالتنا الراهنة ، يا كاتيا ! »

ـ أجل ، ولكنك تنسى أن الزمن قد تغير ، واننا لم نعد كما كنا . كلا !.. ومن ناحية أخرى ، هل من الممكن أنك لا تزال تحبنى ؟

ـ من الممكن ؟ .. أجل ، من الممكن .. من الممكن جدا .

ـ كلا . اننى ، من ناحيتى ، أقول لك انه مستحيل !

ونهضت ، والدموع تنحدر على وجنتيها كثيفة وغزيرة ، وقد تبدى على وجهها ـ برغم الحزن ـ انفعال حار بالحياة ، يكشف عن صراع داخلى كبير . وصاحت ودموعها تتضاعف : **« لن أستطيع أبدا ـ يا ديميترى ايفانوفتش ـ أن أنسى من كنت ، وماذا أصبحت فى هذه اللحظة . ان الذى تريده أقوى منى ، فلست قادرة .. »**

ـ لقد كنت لى دائما بمثابة زوجتى .. وستكونين كذلك الآن بكل تأكيد . واذا كان هناك شخص جدير بالندم والتكفير ، فهو أنا ـ يقينا ـ ولا أحد غيرى . ويعلم الله مدى صدق ندمى !

واقتربت منه ، وحملقت فى عينيه ، وقالت : ((**قل لى يا ديميترى ايفانوفتش ، لماذا تبغى الزواج منى ؟ .. انك لن تستطيع انقاذى ، وستنتهى بنفسك الى الضياع . لن تكون لهذا نتيجة ، ومن ثم فليس عليك سوى أن تتركنى ، اذا كان الوقت يسمح بذلك !))**

ـ هذا الحل مستحيل يا كاتوشا ، اذ أن كل حياتى تتركز فيك . وأن مجرد حديثك الى ـ بهذه الطريقة ـ لدليل على أنك قد صحوت أخيرا ، وما أعظم ما يسبب لى هذا من غبطة ! .. ما أعظم ما يسبب لى هذا من غبطة يا كاتوشا !

ـ انك تحدثنى عن الغبطة ، وهى مشاعر لا يمكن أن يكون لها وجود فى هذه الظروف .. الغبطة قد عرفناها قبل سنوات ، عندما ...

وأمسكت الصورة ـ اذ قالت هذا ـ وراحت تتأملها ، ثم أردفت : ((**كان للغبطة وجود اذ ذاك ، ولكنها لم تعد توجد الآن بكل تأكيد !.. لقد ظللت أنت كما كنت ، أو قريبا مما كنت .. أما أنا .. فماذا أصبحت أنا ؟.. أين أنا ، فى هذه اللحظة ؟.. كلا يا ديميترى ايفانوفتش ، كلا يا عزيزى .. اهجرنى دون تلكؤ . لم أعد أستطيع أن أعيش هكذا . لسوف أشنق نفسى ، أو أغرقها فى الخمر . ألا ترى أننى عندما لا أفكر فى حياتى الماضية ، تسير أحوالى سيرا حسنا بعض الشىء .. أما الآن ، وقد أوقظت ، فانى أرى بوضوح مطرد ، ان الحياة لم تعد ممكنة لى على الاطلاق !))**

ـ ولكن ، لماذا التفكير فى الماضى ؟ اسمعى يا كاتوشا ، هل تذكرين أحاديثنا عن وجود الله ؟ هل تؤمنين برحمته ؟

ـ كنت أؤمن .. فى ذلك الوقت !

ـ ولا تزالين تؤمنين يقينا !.. ألا اعلمى ـ أكثر منك فى أى وقت مضى ـ أن الله ينظر فى أعماق نفوسنا ، ولا يطالبنا

بغير شيء واحد : أن نكون صالحين ، وأن نخدمه . وما ان نسلك هذا الطريق ، حتى يغفر لنا كل ماضينا . سنعيش للرب ، وانى لأهفو الى ذلك بكل قلبى .. وأرجو أن أعيش على هذا النحو معك !

كانت هذه أول بادرة لبعث « كاتوشا » ، بيد أن البعث لم يحمل اليها كثيرا من العزاء والسلوى ، بل انها ــ على النقيض ــ أصبحت تتعذب أكثر من ذى قبل .. اذ أخذت الفكرة التى تملكتها ، بأن زواج « نيكلودوف » منها كفيل بهدم حياته الى الأبد .. أخذت هذه الفكرة تعذبها بقسوة ، وتلازمها بالحاح ، دون أن تقوى على مغالبتها !

● ●

● **توجه** « نيكلودوف » ــ فى اليوم الذى أعقب هذا اللقاء العاصف ــ الى السجن فى الموعد المعتاد . بيد أنه لم يتمكن من مقابلة « كاتوشا » ، برغم الحاحه ، اذ كانت فى الحبس الانفرادى !.. فلقد استطاعت ــ فى اليوم السابق ــ أن تحصل على خمر ، وشربت حتى ثملت ، ثم أحدثت من الضوضاء ما اضطر ادارة السجن الى وضعها فى « زنزانة » ضيقة ، مظلمة !

على أنها لم تلبث أن هدأت فى اليوم التالى ، وتحدثت الى « نيكلودوف » طويلا ــ وفى تلطف ــ عن الماضى ، وعن المستقبل بوجه خاص . وعاهدته على أن لا تعود الى الشراب قط ، وعلى أن تمارس ــ شيئا فشيئا ــ بعض الأعمال . أما القراءة ، فقد رفضت مزاولتها بلهجة لم تدع مجالا لنقاش . فما كانت تريدها اطلاقا !

ــ كلا ، يا ديميترى ايفانوفتش .. لا أستطيع قراءة هذه الروايات والقصص . انها تتضاءل ولاتقاس بحياتى الخاصة . أهناك قصة يمكن أن تضاهى ــ فى الواقع ــ ما مر بى فى الحياة ؟.. كلا ، لا أظن !

ومنذ ذلك اليوم ، تغيرت « كاتوشا » تغيرا جذريا ، فقد أصبحت أكثر هدوءا ، وأكثر التزاما للمسلك الطبيعى . ولقد استمر هذا الوضع الى يوم عيد القديس بطرس .. الى اليوم التاسع والعشرين من يونيو ، وهو اليوم الذى حدد لعقد قران « كاترين ماسلوفا » والأمير « ديميترى نيكلودوف » ، فى كنيسة السجن .

وفى منتصف شهر يوليو ، انطلق رتل المسجونين الذين قضى عليهم بالترحيل الى (سيبيريا) — وبينهم « كاتوشا » — فى طريق (نيجنى نوفجورود) .. وكان « نيكلودوف » قد سبقهم الى (نيجنى نوفجورود) و (سمارا) ، لتصفية شؤونه المتعلقة بممتلكاته فى تلكما المنطقتين . وكان قد دبر أموره ليلحق بالرتل فى (تومين) .. وهكذا كان .

وفى تلك المدينة ، وفق الى الاقامة فى السجن المحلى ، حيث مكث المسجونون فترة طويلة نسبيا .. ثم رافقهم — كواحد منهم ، ملازم لزوجته كاتوشا ليل نهار — فى سفرهم ، بطريق البر حينا ، وبطريق البحر حينا آخر ، الى (ترويتسكو — سافسك) ، حيث أطلق سراح زوجته فى المنفى ، فاستقر معها نهائيا فى احدى ضواحى المدينة .

● ●

● على أن مشروعات « نيكلودوف » كانت بعيدة عن أن تتحقق كاملة . وبرغم رغبته فى أن تكون له حديقة ومزرعة خضر ، يفلحهما بنفسه لسد حاجات البيت ، فقد أخفق فى تحقيق ذلك ، اذ راح يكرس قسطا كبيرا من وقته للتراسل مع رجال الفكر — فى أوربا وأمريكا — الذين كانوا يعتنقون النظريات الاجتماعية التى كان ينادى بها .

ومن ناحية أخرى ، أقبل على العمل فى كتابه ، وعلى تعليم الأطفال الذين كانوا يأتون اليه — من كل مكان — بأعداد مطردة الازدياد .. وقد اضطره هذا الى أن يعهد — طوعا أو كرها —

بشؤون مزرعة الخضر الى « كاتوشا » وأحد العمال .

وكانت « كاتوشا » ـ منذ وصولها الى منفاها ـ قد شغلت بتدبير البيت ، وأخذت تقبل ـ من وقت الى آخر ـ على القراءة . وفى الوقت ذاته ، ما ان ألمت بالفكرة الأساسية لكتاب زوجها ، حتى قدرتها ، وحاولت أن تكون ذات نفع له ، بل انها باتت فخورا به .

ونفدت ثروة « نيكلودوف » الصغيرة ـ أى الاثنى عشر ألفا من الروبلات التى أحضرها معه ـ بأسرع مما كان قد تصور : فان بناء جنـاح أضافه الى البيت الصغير ، وبعض الاعانات التى وزعهـا ، ونفقات طبـاعة بعض كتب ونشرات ـ أخذت الرقابة تضعها فى القائمة السوداء تباعا ! ـ كل هذه الأبواب ، التهمت الموارد المتواضعة بسرعة !

لذلك رأى نفسه ـ ذات يوم ـ مضطرا الى أن يشرع فى كسب عيشه ، بكتابة مقالات أدبية لبعض المجلات الروسية والأجنبية . على أنه لم يمض وقت طويل ، حتى بدت ألوان نشاطه الجديدة مريبة فى نظر الحكومة !

وأبعد « نيكلودوف » ـ و « كاتوشا » لا تفارقه ـ الى منطقة حوض نهر (آمور) . واذ أخذ مركزه المالى يسوء باطراد ، وبدرجة مستفحلة ، كما أصـبح مهددا بالتعرض لأقسى عقاب ، فانه لم يلبث أن انتهز أول فرصة مواتية ، للهرب الى الخارج ، مصطحبا « كاتوشا » .

ويعيش « نيكلودوف » ـ فى الوقت الحاضر ـ فى وئام تام مع « كاتوشا » ، فى لندن ، حيث لا يعرف أحد شيئا عن ماضيها !

وهو يمضى دائبا فى نشر أفكاره الاجتماعية ـ الحبيبة اليه ، والتى كبدته غاليا ـ محوطا بتقدير أنصاره وتلاميذه .

« تمت »

قتلت زوجتى !

(لحن إلى كرويتزر)

للروائى الروسى الكبير

ليو تولستوى



KREUTZER'S SONATA

By : LEO TOLSTOI

ترجمة : حلمى مراد

عزيزى القارى ..

القصة التى أقدمها لك فيما يلى ، تكاد تنفرد بين قصص تولستوى بظاهرتين : الاولى انها تتوسط بين الرواية الطويلة والقصة القصيرة ، فهى بمثابة « رواية طويلة » قصيرة ، أو « قصة قصيرة » طويلة !

أما الظاهرة الثانية ، والاهم ، فهى أن القصة صرخة جبارة فى وجه الرجعية الاجتماعية والتقاليد البالية التى كان ينوء بها كاهل المجتمع الروسى فى القرن الماضى ، كما ينوء بها المجتمع الشرقى ــ الى حد ما ــ حتى الآن .. بل انها صرخة قوية فى وجه « أنانية » الرجل ، التى تملى عليه أن يمنح نفسه من الحقوق ما يبخل به على شريكة حياته !.. وهى من ثم دعوة عادلة الى مساواة المرأة بالرجل فى حق اختيار شريك الحياة ، على أساس من الميل والتفاهم المتبادل ، وفى حق هجره والتمرد على معاشرته اذا انعدم هذا الميل أو تعذر التفاهم !

بل ان القصة دعوة صريحة الى زواج الحب ، وحملة موفقة على زواج « الواجب » ، أو المصلحة ، أو مجرد الزواج بغرض تكوين بيت وأسرة وانجاب أطفال .. أى الزواج من طاهية ومربية ، لا الزواج من « انسانة » ذات مشاعر وقلب وذهن !

وقد أطلق تولستوى على القصة اسم «لحن الى كرويتزر» ، وهو اسم اللحن التاسع من ألحان بيتهوفن التى وضعها للبيانو والكمان المنفرد ــ بخلاف سمفونيته التاسعة الجماعية ــ وكان بيتهوفن بدوره قد اختار هذا الاسم نسبة الى عازف الكمان الباريسى ذائع الصيت « رودلف كرويتزر » الذى كان معاصرا له ، فاهدى هذا اللحن اليه ..

وعلى أن كل الصلة بين لحن بيتهوفن وقصة تولستوى هذه ، لا تتجاوز فى الواقع أن بطل القصة ــ الزوج المعذب ــ كان يحس ، كلما سمعه يعزف ، كان « شياطين الحواس تثور وتغلى فى دمائه ! » .. أما سياق القصة ومغزاها الحقيقى فيدوران ــ كما أسلفنا ــ حول « ثالوث » هذه المشكلة الازلية المعقدة : مشكلة الحب ، والزواج ، والخيانة !

— ١ —

كنا فى بدايـة الربيـع .. وكانت قد مضت على بدء رحلتنا أربع وعشرون ساعة ، صعد فيها الى القطار ركاب ، وهبط منه ركاب .. فيما عدا ثلاثة غيرى لم يتغيروا ، منهم سيدة ذات وجه يبدو عليه الاجهاد ، لا هى بالجميلة ولا الشابة ، تدخن السجاير وترتدى قبعة أشبه بقبعـات الرجال .. وبرفقتها رجل ثرثار — عرفت فيما بعد أنه محام — فى نحو الأربعين ، يحمل معه حقائب كلها جديدة ونظيفة .. وثالثهم رجل قصير متحفظ ، فى أوسط العمر ، وخط الشيب شعره قبل الأوان ، تبدو العصبية الشديدة على حركاته ، وتبرق عيناه ببريق الذكاء ، وتنتقلان فى جميع الاتجاهات فلا تستقران على شىء !.. على أن أغرب ما بدا منه ، شبه سعلة — أو لعلها ضحكة مقتضبة — كانت تصدر منه أحيـانا ، بغير معنى أو مناسبة ! .. **وقد حرص طيلة الرحلة على تجنب كل تعارف أو حديث مع بقية الركاب ، فكان اذا سأله أحدنا سـؤالا ، أجاب فى اقتضاب تام .. ثم عاد الى سيجارته يدخنهـا ، أو كتابه يقرأه ، أو الى النافذة يتطلع منها .. أو أخرج زاده من جرابه القديم ، فتناول قدحا من الشاى أو شيئا من الطعام ..** ورغم ذلك فقد خيل الى أنه يضيق بوحدته المرهقة ، فحاولت أكثر من مرة أن أجاذبه الحـديث .. ولكنه — فى كل مرة كانت تلتقى فيها أعيننا ، بحكم جلوسـنا متواجهين — كان يشيح عنى .. ويعود الى الكتاب أو النافذة !

— ٢ —

⊙ **وفى** المساء وقف القطار بمحطة كبيرة ، فغـادر هذا المسافر العصبى المزاج العربة ليتناول قدحا من الشاى ، كما خرج المحامى بصحبة مرافقته .. ودخل أثناء غياب هؤلاء عدة ركاب آخرين ، من بينهم شيخ طاعن فى السن ، فارع القامة ، حليق اللحية ، يبدو أنه تاجر .. جلس فى مواجهة المحـامى واندمج فى الحديث مع شاب دخل العربة فى المحطة ذاتها ..

ولما كنت جالسا فى منتصف الأريكة المقابلة ، وكان القطار قد توقف وانقطعت حركة مرور المسافرين ، فقد استطعت أن أستمع الى بعض ما كان يقال .. دار الحديث فى بادىء الأمر ، كالمعتاد ، حول الحالة التجارية ، والأسعار الحاضرة فى موسكو .. ثم انتقل الى ذكر السوق التى أقيمت فى معرض مدينـة (نيجنى نوفجورود) ، **وعندئذ بدأ الشاب يتحدث عن المغازلات الغرامية التى صـدرت من رجل متقـدم فى السن فى ذلك المعرض .. لكن الشيخ قاطعه متحـدثا بدوره عن أسـاليب الغزل فى الماضى ، مفاخرا بما كان له فيها من نصيب** .. وكيف أنه وزميلا له شربا مرة حتى ثملا ، ثم أتيا من الحيل والمغامرات ما يستحى من ذكره الا هامسا ! .. فأغرق الشاب فى الضحك بصوت مرتفع ، وضحك الشيخ بدوره ..

وخرجت من العربة لفترة ما ، وحين عدت كان المحـامى وصديقته قد عادا ، وكانت المناقشات قد حمى وطيسها .. فسمعت المحـامى يقول : « **.. وعلى أثر ذلك أوضحت المرأة لزوجهـا أنهـا لا تريد ـ ولا تستطيع ـ أن تعيش معه بعد ذلك !** » .. وهنا علت أصوات العابرين فى الممر ، فحجبت عن سمعى بعض عبارات الحديث .. فلما خفت الضجيج ، طرق أذنى صوت المحامى يقول : « ان انتشار الطلاق قد بات يشغل الأذهان فى أوربا ، بل أن هذه الظاهرة قد بدأت تتفشى فى بلادنا

الروسية أيضا » .. ثم خفض من صوته موجها الحديث للشيخ ، وعلى فمه ابتسامة : « لم تكن الحال كذلك فى عهدنا ، أليس كذلك ؟ » .. فأجاب الشيخ : **« لقد كان الشىء نفسه يحدث ، ولكن بدرجة أقل .. أما اليوم فقد ازدادت حالات الطلاق ، بسبب ازدياد المدنية .. »**

فقاطعته المرأة : « ما وجه الخطأ فى مدنية هذه الأيام ؟ أتقصد أنه من الأفضل تزويج الفتاة بالطريقة التى كانت تتبع قديما ، دون أن يسمح للعروسين بأن يتقابلا قط قبل الزواج ؟ ان الناس وقتئذ لم يكونوا يدرون شيئا عن مدى قدرة الواحد منهم على أن يحب شريك حياته ، وكان الرجل يتزوج من الفتاة التى تلقيها الأقدار فى طريقه ! فكان ذلك الزواج ينتهى غالبا بالفشل والشقاق ، بل والتعاسة التى تلازم الزوجين مدى الحياة ! .. فهل ما زلت تفضل طريقتنا القديمة فى الزواج ؟ »

ولم يجب التاجر الشيخ عن سؤالها هذا ، وانما قال : **« لقد بلغنا فى عصرنا الحاضر درجة عظيمة من المدنية .. لكنى أود أن أعرف : كيف توضحين الصلة بين تقدم المدنية وازدياد الخلافات الزوجية ! ؟ »**

وهنا كاد الشاب أن يدلى بتعليق ، لولا أن قاطعت المرأة محدثها : « ان ذلك الزمن الذى تتغنى به قد ولى .. الى غير رجعة ! »

فقال الشيخ فى اصرار : « هذه سخافات الثقافة الحديثة ! »

واذ ذاك استطردت المرأة ، وهى ترمق المحامى بنظرة : « كثيرا ما يحدث أن يتزوج الشاب من فتاة دون أن يجمع الحب بين قلبيهما ، ثم يدهشان بعد ذلك حين يعجزان عن

تحقيق الوفاق فى حياتهما .. **ان الطريقة القديمة لهى طريقة الحيوانات التى تأتلف بأمر سيدها ، أما الرجال والنساء فلهم مشاعر ، ورغبات ، وميول .. ! »**

فقال الشيخ : « حديثك هذا لا يؤدى الى الغرض المقصود .. ان الحيوانات وحوش تعيش على الفطرة ، أما الانسان فانه يسير فى حياته وفق قوانين معينة .. »

ـ كيف تستطيع المرأة أن تعيش مع زوج لا تحبه ؟

ـ لم نسمع بمثل هذا ولم نألف النقاش فيه .. هذه بدعة من بدع هذا الزمن الذى أصبحت فيه المرأة تهدد الرجل بقولها : « سأهجرك ! » .. بل لقد سرت العدوى حتى الى الريف ، فصرنا نسمع عن المرأة التى تقول لزوجها : « سأتركك وأذهب مع رجل أفضل منك ! » .. **لا جدوى من الجدل : ان كل ما تحتاج اليه المرأة هذه الأيام هو .. الخوف !**

ـ الخوف ؟ ممن ؟

ـ الخوف من الزوج بالطبع !

ـ لقد مر زمن الخوف وانقضى !

ـ كلا يا سيدتى .. ان زمن الخوف لم ولن ينقضى ! وكما خلقت حواء من ضلع آدم ، فسوف تظل المرأة هكذا الى الأبد !

ـ هذا ما تقررونه أنتم أيها الرجال ، يا من تفرضون علينا طاعتكم .. **انكم تودون أن تحبسوا النساء فى (الحرملك) ، أما بالنسبة لكم فكل شىء محلل مباح ! ألا تتفق معى فى أن المرأة انسان بشرى ، لها مشاعرها كما للرجل تماما ؟.. فماذا تراها فاعلة ، اذا لم تستطع أن تحب زوجها ؟ !**

فقال الرجل وهو يكرر كلماتها بلهجة كلها خشونة وانفعال :

ـ لا تحب زوجها ؟ ! انها يجب أن تتعلم كيف تحبه !

ـ قد لا يحدث هذا الذى تتوقعه ، فانها قد لا تستطيع أن تحبه .. واذا انعدم الحب فلا يمكن فرضه بالقوة !

ـ قد يحدث ما تقولين ، ولكن ليس عندنا ..

ـ بل لقد حدثت مهزلة من هذا النوع فى بيت رجل لطيف ، منذ عهد قريب : اذ اتفق أن كانت الزوجة مولعة بالمجتمعات ، فبدأت تغازل شابا وسيما ! وقد حاول زوجها أن ينصحها بالحسنى ، فلم تنتصح .. بل ازدادت خداعا وعربدة .. حتى لقد باتت تحتال عليه بأقذر الطرق ، وتسرق من نقوده !.. فضربها وسامها العذاب ، لكنها لم ترتدع .. وأخيرا فرت مع شاب يهودى ، غير أنه لم يلبث أن نبذها وآثر أن يعيش حرا .. فانتهى بها المطاف الى أن صارت من نساء الهوى !

ـ ذلك لأن زوجها كان جاهلا فلم يستعمل الشدة معها منذ البداية ! كان خطأ منه أن يصرح لها بتنفيذ رغباتها .. **والمثل يقول : ((لا تأتمن حصانك فى الحقل ، ولا زوجتك فى البيت !)) .. نعم ، علينا أن نردع المرأة فى الوقت المناسب ، والا انتهى كل شىء الى دمار محقق !**

عندئذ لم أتمالك مشاعرى ، فقلت للشيخ : ((ألم تقصوا علينا ـ أنتم المتزوجون ـ كيف استمتعتم فى سوق معرض (كونافينو) بالمغازلات الغرامية ؟))

فقال التاجر الشيخ : ((هذا موضوع شخصى ..)) ، ثم لاذ بالصمت !.. وحين انبعث صفير القطار ثانية ، نهض التاجر فأعد حقيبته ، ولف شاله حول رقبته ، ثم رفع قبعته محييا وغادر القطار .. ولم يكد يختفى حتى ارتفعت عدة أصوات

فى وقت واحد ، فقالت المرأة فى سياق الحديث : **« الشىء الرئيسى الذى لا يستطيع هؤلاء الرجال فهمه ، هو أن الزواج بغير حب ليس بزواج ، وان الحب وحده هو الذى يجعل الزواج مقدسا ! »**

وفيما كانت تتكلم ، انطلقت زفرة حارة من الرجل القصير المستوحش ، وكان الانفعال قد دفع الدم الى وجهه ، وجعل عضلات خده تختلج .. ولم يلبث أن قال ، مساهما فى المناقشة : « أى حب هذا الذى .. يقدس الزواج ؟ »

ولحظت السيدة انفعاله ، فأجابته فى رقة : « الحب الصحيح ، بين الرجل والمرأة .. فهو وحده الذى يجعل الزواج موفقا » .

ـ ولكن ماذا تعنين بالحب الصحيح ؟ عرفيه !

ـ الحب ؟.. انه الأفضلية التى يخلعها الرجل أو المرأة على شخص ما ، بحيث يميزه عن سائر البشر !

ـ وكم من الزمن يجب أن تستمر هذه الأفضلية أو التمييز حتى تسمى حبا : شهرا ، أم شهرين .. أم نصف ساعة ؟

فأجابت السيدة وهى تهز كتفيها : « أحيانا تدوم العمر كله ! »

ـ هذا يحدث فى القصص فقط ، أما فى الحياة الواقعية فلا يدوم الحب عادة أكثر من سنة واحدة .. وأحيانا يقاس عمره بالأشهر ، بل بالأسابيع ، والأيام ، والساعات !

وكان يتكلم بسرعة متزايدة ، وعصبية شديدة .. ثم صمت برهة ، استطرد بعدها يقول ، فى هدوء مصطنع : « والآن ، أحسب أنكم عرفتم من أكون ! »

ـ كلا ، لم نحظ بعد بهذا الشرف ..

ـ لن يكون شرفا عظيما على أى حال !.. **اسمى « بوزدنيشيف » ، وقد كنت أحد الذين امتحنتهم الأقدار بكارثة رهيبة : كارثة اضطرار الزوج الى قتل زوجته !**

قال ذلك وشرع يجيل بصره فينا واحدا واحدا .. لكن أحدا منا لم ينطق بحرف .. فأردف الرجل فى أسى : « أحسب الأمر لا يهمكم ، فاغفروا لى ثرثرتى .. وأعدكم بأنى لن أثقل عليكم بأكثر من ذلك ! »

فغمغم المحامى بكلمة تحية وتشجيع ، لكن بوزدنيشيف لاذ بالصمت .. ولم يلبث كل منا أن عاد الى ما كان منشغلا به قبل الحديث . وحين بلغ القطار المحطة التالية ، انتقل المحامى ورفيقته الى عربة أخرى .. واستسلم الشاب لنعاس شهى ، فالتفت بوزدنيشيف الى قائلا : « لعله لا يروقك الجلوس معى ، بعد أن عرفت من أنا ، فاذا كان الأمر كذلك فسوف أتركك وأنتقل الى مكان آخر .. »

ـ كلا ، أرجوك ..

ـ أو لعلك تريد أن تنام ؟

ـ كلا ..

ـ اذا كان الأمر كذلك فسوف أقص عليك ـ اذا شئت ـ كيف قادنى ذلك الحب بعينه الى فعل ما فعلت !

ـ يسرنى سماع قصتك ، اذا لم تؤلمك الذكرى ..

ـ بل بالعكس ، فان فى ذلك تسرية عنى ..

وفى تلك اللحظة مر بنا التذكرى ، فأمسك محدثى لسانه حتى غادر الرجل العربة ، وهو يتبعه بعينين حذرتين ، وعند ذاك فرك وجهه بيديه ، ثم انطلق يروى مأساته :

— ٣ —

◉ « **كنت** قد تخرجت فى الجامعة ، شابا مترفا يملك ضيعة ، وينتمى الى طبقة الأشراف .. فعشت كما يعيش رجال طبقتى ، حياة طليقة من كل قيد . وأعتقد أنى كنت انسانا جذابا ، على شىء من الخلق القويم ، فما كنت يوما بالمتهالك على الملذات ، المجرد من الضمير ، ولا كان اللهو مع النساء هوايتى الوحيدة فى الحياة — كما كان الأمر بالنسبة لكثيرين من زملائى — وانما كان الاعتدال رائدى فى هذا المضمار ، محافظة على صحتى على الأقل . **وكنت أحرص دائما على تجنب كل رابطة روحية بينى وبين النساء اللاتى كانت لى معهن صلات من اللون الآخر !.. ومن هنا نشأت كل متاعبى المروعة التى سممت حياتى فيما بعد !** .. اعذرنى اذا لم أستطع الاحتفاظ بهدوئى وأنا أتحدث فى هذا الموضوع ، بسبب الكارثة التى حلت بى فى صدده ، ولكن صدقنى أنه منذ وقعت تلك الكارثة ، انفتحت عيناى .. فرأيت كل شىء على ضوء مخالف لما كنت أراه عليه ، بل على عكس ما كنت أراه قبلا ! ! »

وكان يدخن سيجارته ، فاتكأ بمرفقيه على ركبتيه ، واستأنف كلامه .. وكان الظلام قد شمل العربة تماما ، فلم أعد أرى وجهه ، وانما سمعت فقط صوته الجذاب يمضى فى الحديث :

« بدأت الكارثة وأنا فى سن السادسة عشرة .. ولم أكن قد عرفت المرأة بعد ، ولكنى — كسائر اخوانى الطلبة — لم

أكن بالفتى الساذج . كان زملائى قد أفسدوا من قبل أفكارى ، فبدأ بالى ينشغل بالمرأة ، والبحث عنها ، والجرى وراءها .. لا امرأة بعينها ، وانما المرأة ككائن شهى ، كجنس آخر .. أى امرأة !.. لكننى أخيرا سقطت ! سقطت باغراء زميل مرح من « اخوان السوء » كان قد علمنى من قبل لعب الميسر ، وشرب الخمر ، ثم توج جهوده أخيرا باقتيادى الى .. هناك !

« وهكذا ترديت فى الهاوية .. وساعد على وقوعى فيها أننى لم أكن أسمع أحدا من الكبار « المحترمين » يحذرنى من ذلك ، أو ينبهنى الى خطورة فعلتى ..

« بل لم يقتصر الأمر على عدم سماعى أى تحذير من أحد فى هذا الصدد ، وانما تجاوزه الى سماع الكثير من عبارات التحبيذ والتشجيع ، سواء من جانب الشيوخ والرجال الناضجين الذين أحترمهم ، أو من جانب زملائى « المجربين » الذين يكبروننى .. أو من بطون الكتب .. وكانت حجة الجميع فى هذا التحبيذ تكاد تكون واحدة : الحرص على الصحة والأعصاب ، مع عدم اغفال الوقاية من الأمراض الخبيثة المعدية !

« وهكذا سقطت تلك السقطة الرهيبة ، بغير أن أدرك وقتئذ أنها سقطة .. وان كنت أذكر جيدا أنى قبل أن أغادر ذلك المكان ، شعرت باحساس من الكآبة الغريبة ، والأسى العميق !

« ومنذ ذلك اليوم أطلقت لنفسى عنان الارتواء من تلك

الملذات ـ الضرورية ! ـ حتى اعتدتها ، كما اعتدت من قبل كلا من التدخين والخمر .. **ففقدت براءة الذهن التى كانت تتيح لى أن أنشىء صلات صداقة بريئة صريحة مع النساء ، وصار نقـــاء علاقتى بأية امرأة .. ضربا من المستحيل !** أو بعبارة أخرى صرت ما يسمونه بالفتى الداعر .. أو ذلك الانسان غير الطبيعى الذى فقد ارادته .

« وكان ذلك بداية انهيارى ! »

— ٤ —

« **ومضت** الأعوام ، وأنا ماض فى غيى .. يا الهى ، اننى حين أذكر كل الموبقات التى أرتكبتها فى هذا المضمار ، أقشعر رعبا !.. وبرغم ذلك ، فاننى وأمثالى من « شباب المدينة الذهبى » حين كنا نقبل على صالون زاخر أو مجتمع رفيع ، مرتدين ثيابنا الفاخرة ، بوجوه مغسولة وذقون حليقة معطرة وشعر مصفف ، كنا نستقبل بأبلغ آيات الاحترام والترحيب والاعجاب !

« هذا ماكان يحدث فعلا ، ولا يزال يحدث .. **ولو أنصف المجتمع واعتـدلت الأوضاع والمقاييس ، لكان فرضا على كل رجل يرى شابا داعرا يقبل على مجلس فيه أخته أو ابنته ، أن ينتحى به جانبا ويهمس له فى غير ضجة : « اصـغ الى يا صاح .. أنا أعرف جيدا كيف تعيش ، وأين ومع من تقضى لياليك .. وهنا توجد فتيات ونساء طاهرات وبريئات ، فهذا ليس مكانك .. ورجائى اليك أن تذهب ! »**

« هكذا عشت ، حتى سن الثـلاثين .. وطيـلة تلك السنوات ، كنت أفكر جديا فى الزواج ، بمجرد عثورى على

الفتاة التى تناسبنى . وكان الشرط الأساسى الأول الذى أشترطه فيها هو الطهارة الخالصة !.. وأخيرا وجدت ضالتى فى ابنة أحد موظفى حكومة (بنزا) . كنت قد قضيت يوما كاملا فى صحبتها ، وفيما نحن عائدان فى قارب شراعى تحت ضوء القمر ، شعرت أنها فتاتى المنشودة ، وانى أتمنى ألا أفارقها أبدا ، وانها خير من تفهم أفكارى ومشاعرى !.. يا لسلطان الجمال علينا نحن الرجال ! ان المرأة الجميلة تتفوه بكل ألوان الحماقات ، فيخيل اليك أن ما تقوله هو الحكمة المصفاة ! وتنطق بالألفاظ والعبارات المبتذلة ، فيبلغ كلامها مسمعك وقد صار آية من آيات التأدب والاحتشام !

« وفى اليوم التالى تقدمت لخطبة الفتاة من أبيها .. وذات يوم خطر لى أن أطلع خطيبتى على مفكرتى التى دونت فيها بعض أدوار ماضى الحافل ، كى تعرفه على حقيقته منى — قبل أن تنقله اليها ، مشوها ، وشايات الوشاة ! — فلم تكد تفرغ من قراءة المفكرة حتى ارتسمت على وجهها أبلغ مظاهر الرعب ، واليأس ، والاشمئزاز ، حتى لقد خشيت أن تهجرنى على الأثر .. وليتها فعلت ! .. لكنها لم تفعل .. فقد أفلحت مؤهلاتى — مركزى وثروتى وأناقتى — فى اتمام الصفقة !.. **ولم أكن أعلم يومئذ — كما أعلم الآن — أن المرأة تنتقم لحرمانها من حق اختيار الزوج الذى يعجبها ، بمحاولة السيطرة — بعد الزواج — على الزوج الذى اختاره لها ذووها !**
والظاهرة الغريبة فى موقف مثل هذه الزوجة ، أنها تجمع بين النقيضين : فهى من ناحية تكون ذليلة للزوج ، خاضعة لنزواته وشهواته .. ومن الناحية الأخرى تعوض مذلتها باذلاله ،

واسترقاق حواسه لفتنة جسدها ، فينتهى بها الأمر الى السيطرة عليه تماما ، من حيث يحسب هو أنه المسيطر ! .. **وكأن لسان حالها يقول : « أتريدوننا أيها الرجال أن نكون مجرد أدوات متعة ولذة لكم ؟.. حسنا ، فاننا بواسطة هذا السلاح نفسه سوف نجعلكم لنا عبيدا ! » ، والنساء بطبعهن أسوأ من يستخدم السلاح الذى يوضع فى أيديهن .. أيا كان !**

« هكذا يا سيدى تسيطر النساء على الرجال .. وهكذا تتحول قوى الانتاج الصناعى ، ونشاط الهيئات العاملة فى المدن والبلدان المتحضرة الكبرى ، الى خدمة نزوات النساء ، والتوفر على ارضائهن .. والا فادخل أى محل تجارى تراه فى طريقك ، تجد أن تسعين فى المائة من البضائع والأموال المستثمرة فيه ، تخص النساء ! .. وان كل ترف الحياة وأطايبها معد للنساء .. وان الملايين من الرجال والأجيال المتعاقبة من العبيد يفنون حياتهم فى المصانع ، لا لشىء الا لاشباع نزوات النساء ، ونهمهن الى العربات الفاخرة ، والثياب الأنيقة ، والمجوهرات الغالية ، وسائر الكماليات وأدوات الزينة والترف !.. **وهكذا تتربع النساء كالقياصرة ، فوق عروشهن ، ناعمات البال ، قريرات العين .. وكل هذا سببه حرمانهن من حق المساواة بالرجال ، وانتقامهن لأنفسهن بتشغيلنا لانتاج أدوات الجمال والاغراء ، التى تمكنهن من السيطرة على حواسنا ، واستعبادنا ! ولست أدرى لماذا لا تعاقب المرأة المغالية فى التأنق ، كما يعاقب كل خارج على القانون ؟ أوليست تهاجم حواس الرجل الى حد يستحيل معه عليه أن يحتفظ بهدوئه فى وجودها ؟..** اننى أشعر

أحيانا ، عندما يقع بصرى على امرأة متأنقة ، بدافع يغرينى بمناداة رجل البوليس كى يتولى حمايتى من ذلك الخطر الداهم ، كما يحمى الناس من أى شىء مخالف للقانون .. وأى فارق بين أن تسمح الدولة بمظاهر تأنق وتزين النساء ، التى تلهب العواطف وتضر بالأمن الاجتماعى ، وبين سماحها باقامة شتى أنواع الفخاخ والمصائد للمارة فى الطرقات ؟ !

— ٥ —

● « **وانقضت** فترة الخطبة ، وأسرتانا فى أخذ ورد ، ومفاوضات ، ومشاورات ، بشأن المعدات التقليدية لكل زواج : الأثاث ، والمسكن ، وأغطية الفراش ، والثياب ، وعلب الحلوى .. الى آخر هذه السخافات والمظاهر الجوفاء التى يقصد بها عادة اخفاء معالم « الجريمة » الأصلية ، جريمة « بيع » الفتاة الطاهرة الى الشاب ذى الماضى الدنس ، كأية صفقة تجارية !

« ولكن ، هكذا يتزوج الناس جميعا .. وهكذا تزوجت أنا !.. وبدأ شهر العسل البغيض .. وبالرغم من الجهود التى بذلتها كى ينجح زواجى ، فانه قد فشل .. وبدأت أعراض فشله تظهر منذ اليوم الثالث أو الرابع . وجدت عروسى منقبضة ، فبدأت أسألها عن سبب انقباضها ، وأحيطها بذراعى ، بكل ما وسعنى من حنان .. لكنها دفعت ذراعى بعيدا وأخذت تبكى بحرقة ! وحين عدت أسألها عن الأسباب ، قالت شيئا فهمت منه أنها اشتاقت لأمها .. وخيل الى أنها كاذبة ، وانها تخفى السبب الحقيقى لانقباضها ،

فجعلت أسرى عنها وأواسيها .. بغير أن أتعرض لأمها ، بخير أو شر .. لكن اغفالى ذكر أمها قد ساءها ، واستنتجت منه أننى لم أصدقها ، فثارت واتهمتنى بأنى لا أحبها !.. وإذ ذاك ثرت بدورى ، واتهمتها بالحماقة والرعونة .. فتغير وجهها على الفور ، وشرعت تكيل لى تهم الأنانية والقسوة ، بأمر الألفــــاظ .. فجعلت أتأملها صامتا : كان وجهها يعبر عن البرود ، والعداء ، والكراهية ، الأمر الذى أزعجنى على الفور وجعلنى أسأل نفسى : ما معنى ذلك ؟ اذا كان هــذا مبــلغ « حبها » لى فى شهر العسل ، فكم يكون الأمر فيما بعــد ؟ وأية حياة مريرة بدأناها ! ؟

« حاولت أن أهدئها .. لكن محاولاتى اصطدمت بحائط شامخ من البرود ، والعداء المضمر لى ، الى حد أنى ـ قبل أن أجد وقتا للتفكير ـ تملكنى حنق شديد ، فتبادلنا الكثير من العبارات العنيفة ! **وكان لذلك الشجار الأول أثره السىء على نفسيتى . لقد سميته « شجارا » ، لكنه كان اكتشافا « للهوة » الواسعة التى تفصل بيننا ، والتى ازدادت اتساعا فيما بعد !.. وكان أكثر ما أرعبنى فى هذا الشأن حسبانى وقتئذ أننى الزوج الوحيد الذى ابتلى بهذا البلاء . لم أكن قد تبينت أن أكثر الأزواج منكوبون بزوجات من هذا الطراز ، وان كل واحد منهم يحسب نفسه التعس الوحيد من بنى جنسه ، فيحاول جاهدا اخفاء حظه السىء عن الآخرين ، وعدم الاعتراف به .. حتى لنفسه !**

« وقد جربت فعلا هذا الميل الى تجاهل الأمر الواقع ،

رغم أدراكى ـ منذ بدأت تلك المشاحنات ـ أن زواجى لم يكن موفقا ، وان فشله لم يقتصر على حرمانى من السعادة التى كنت أنشدها ، بل تعدى ذلك الى اشعارى بأن حياتى قد ابتليت بهم مقيم ! وهذا يعطيك فكرة عن الرابطة الوحيدة التى كانت تربطنا ، والتى كانت أشبه برابطة الشريكين فى جريمة ! وهل أدل على تلك الجريمة من أن التعسة حملت قبل انقضاء شهر على زواجنا ؟ !

« وهكذا عشت أشبه بخنزير !.. وكان أبشع ما فى الأمر تصورى أننى أحيا حياة عائلية فاضلة ، وأننى رجل ذو خلق مثالى ، ما دمت لا أخون زوجتى مع نساء أخريات .. واننى لست الملوم على ما ينشب بيننا من شجار ، وانما هى الملومة !.. وهذا خطأ فاحش بطبيعة الحال ، فانها فى الحقيقة لم تكن تستحق لوما من أجل ذلك ، بل كانت مثل غالبية النساء المترفات اللواتى من طبقتها .. ورأيتنى أسائل نفسى : ما هى نظرة الرجل الى المرأة فى المجتمع العصرى ؟.. انه يعلن الآن دائما وفى كل مناسبة أنه يحترم المرأة ، ويدين لها بنجاحه ومركزه ، واذا سقط منها منديل انحنى فالتقطه لها !.. وهو قد يعترف لها بحقها فى التمتع بحقوقها السياسية وشغل المناصب العامة .. لكن رأيه فيها فيما عدا ذلك لم يتغير : فهى ما تزال أداة لهوه ومتعته ، التى يجب أن تخضع دائما لأهوائه ونزواته . وهى تعلم هذا كله ، وتعده ـ بحق ـ مرادفا للرق والعبودية ، شأنها فى ذلك الآن شأنها من قديم الزمان ! »

ثم سكت الرجل لحظة ، وعاد يقول :

« ولنعد الى ما كنا فيه .. مرت أشهر الحمل فى خصام وشجار متقطعين .. وحين وضعت مولودها رأى الأطباء أن صحتها لا تحتمل مشقة ارضاعه بنفسها . وهكذا ، للمرة الأولى ، حرموها — بل حرمونى — من الوسيلة الوحيدة لحمايتها من الغواية والضلال .. **اذ لم تكد تتحرر من نير الحمل والرضاع حتى استيقظت فيها أنوثتها النائمة ، بصورة عنيفة ، فاستيقظت فى — تبعا لذلك — غيرتى عليها بصورة أعنف ، وأشد حدة .. وخاصة بعد أن رأيت كيف قبلت عن طيب خاطر ، وفى سهولة ويسر ، أن تتخلى عن مسئوليتها كأم ، فقدرت احتمال تخليها ، بنفس السهولة ، عن واجبها كزوجة !**

« وهكذا ظللت فريسة لغيرتى زمنا ، ولم ينقذنى من هذه الغيرة غير حمل زوجتى مرة أخرى ، ثم مرارا على التعاقب .. وارضاعها وتربيتها لأطفالها الجدد ، الذين أنقذونى وأنقذوها .. فلقد أنجبت فى خلال ثمانى سنوات خمسة أطفال ، أرضعتهم وربتهم جميعا بنفسها ، باستثناء الأول ..

« وعلى ذكر الأطفال ، كلنا نعلم أنهم بركة الهية ، ولكن اسأل أمهات اليوم يقلن لك : ان الأطفال لعنة ! وانهن لا يرغبن فى انجابهم قط ، خوفا من أن يمرضوا يوما أو يموتوا .. واذا أنجبنهم فانهن لا يرغبن فى ارضاعهم ، لئلا يزداد تعلقهن بهم فلا يحتملن فراقهم أو فقدهم !.. فهن يوازن بين مزايا النسل ومساوئه ، فيخرجن من الموازنة بأن البهجة التى يدخلها على قلبى الوالدين جمال الطفل ، وذراعاه الصغيرتان ، وساقاه الدقيقتان ، ولغوه الحلو .. لا توازى اللوعة التى

يقاسينها ، لا بسبب مرض الطفل أو وفاته فقط ، وانما بسبب احتمال ذلك المرض أو تلك الوفاة ! !

« وهكذا كانت زوجتى . كان تعلقها بأطفالها ، ومداعبتها اياهم ، وحرصها على حمايتهم ، غريزيا ، كتعلق الحيوان بصغاره !.. ولكنها لم تكن كالحيوان فى انعدام التفكير والخيال من رأسه — وهما المنغصان لحياة الانسان ، والأمهات خاصة — فالدجاجة لا تقاسى هما من ناحية الأمراض التى قد تصيب صغارها ، ولا تعرف شيئا عن وسائل الوقاية التى تحمى صغارها من كل مكروه ، ومن ثم لا تحس خوفا عليها ولا انزعاجا ، وتنعم بها وتستمتع ببهجتها متعة لا يشوبها منغص .. فاذا بدت على أحدها أعراض المرض ، عنيت بتدفئته وتغذيته ، وهذا كل واجبها .. فاذا مات بعد ذلك ، لم تسأل نفسها عن سبب موته والى أين ذهب ، وانما تصيح بضع صيحات ثم تستأنف حياتها المعتادة ، وتنجب نسلا جديدا !

« أما نساؤنا التعسات ، فالأطفال بالنسبة لهن عذاب مقيم .. فعلاوة على المرض والموت ، يشغلن أنفسهن بألف مسألة ومسألة : باطعام الطفل ، والباسه ، وكيفية استحمامه ، ومتى يجب أن ينام ، ومتى يتنزه ، ودرجة تهوية غرفته ، ثم تربيته وتعليمه .. ولكل من هذه المشكلات قواعد متناقضة ، يتدخل فيها الأطباء ، والجيران ، والأهل ، والأصدقاء .. وهى قواعد تتغير وتتبدل كل أسبوع ، كأنما الأطفال لم يكونوا يولدون ويكبرون قبل أيامنا هذه !.. أما اذا مرض الطفل يوما ، فهذا هو العذاب الحقيقى والجحيم المقيم .. فانه لن

يشفى الا اذا تولى علاجه الطبيب « فلان » الأخصائى المشهور ، فاذا لم يتيسر استدعاؤه أو كانت الأسرة تقيم فى بلد آخر ، فالويل للطفل .. انه ميت لا محالة !

« هكذا كانت زوجتى ـ مثل سائر أمهات اليوم ـ تتأرجح بين طبائع الحيوان والانسان ، فلا تبلغ هذا ولا ذاك ، فلا هى بالأم التى تعالج الأمور فى بساطة بلا تفكير ، كالحيوان .. ولا هى بالأم المؤمنة التى تكل أمرها الى الله ، فتقول كما يقول المؤمنون : « الرب أعطى ، والرب أخذ ، فليكن اسم الرب مباركا »

— ٦ —

● « وظلت العلاقة بيننا تتفاقم ، حتى لم يعد العداء بينى وبينها عارضا طارئا ينتج عن اختلاف آرائنا ، بل صار حقيقة متأصلة بسبب ذلك الاختلاف . فأصبح كل منا يعارض مقدما كل ما يقوله الآخر أو يفعله ! وأذكر أن الآراء التى كنت أتشبث بها وأجعل منها محلا للنزاع لم تكن ذات قيمة فى نظرى لذاتها ، وانما كنت أتمسك بها لأن تسليمى فيها معناه الهزيمة أمام زوجتى والتسليم لها بما تريد !.. وصرنا حين نجلس معا نلوذ بالصمت ، فلا نتبادل الا العبارات الضرورية شبه الرسمية ، مثل « كم الساعة الآن ؟ » أو « ماذا تأكل اليوم ؟ » أو « ما أنباء اليوم ؟ »

« وهكذا عشنا فى ضباب متصل ، أشبه بسجينين قيد أحدهما الى الآخر بأغلال حديدية قوية ، كلاهما يمقت الآخر من صميم قلبه ، ويسمم حياة رفيقه ما وسعه الجهد !..

وبعد حين ، اقتضتنا ظروف تعليم الأولاد أن ننتقل الى العاصمة . وفى العواصم الكبرى لا يجد الانسان متسعا من الوقت كى يخلو الى نفسه ، ويتأمل أحواله ، فان وقته كله يضيع فى الانتقال ، والعمل ، والصلات الاجتماعية ، والتردد على الأطباء ومعارض الفن ومدارس الأولاد ، ورد زيارات من يزورونه ، وسماع محاضرات الأعلام ومشاهير الرجال والنساء .. الى آخر تلك الدوامة العجيبة التى تنسى الانسان نفسه ، وهمه . وهكذا قل احتكاكنا وشجارنا .. ومضى شتاء على هذا المنوال . وخلال الشتاء التالى وقعت الملابسات التى سأسردها الآن ، والتى تسببت — برغم تفاهتها — فى كل ما تلاها من أحداث جسام !

« .. فقد ضعفت صحة زوجتى ، فأمرها الأطباء بألا تنجب أطفالا آخرين .. ورغم معارضتى فى ذلك ، فقد أصرت هى على التزام نصيحتهم ، فقبلت أنا مرغما ، بغير أن أتنازل عن رأيى فى أن منع النسل — بوسائل المدنية الحديثة — جريمة يجب أن ينص عليها فى قانون العقوبات !

« .. وقد قضينا على هذه الحال عامين ، تحسنت فيهما صحة زوجتى وازدادت جمالا واشراقا .. وأدركت هى ذلك ، فبدأت تعنى بنفسها وتتأنق ، حتى صار حسنها متألقا ، يدير رؤوس الرجال ويستثير عواطفهم ! كان مجرد وقوع بصر أحدهم عليها يربكه ويشيع الاضطراب فى نفسه !..
صارت أشبه بالحصان الذى أعتق من جر العربات وأجيدت تغذيته ورفع السرج عن ظهره ، فتحرر ، وأزيلت من طريقه جميع العقبات والحوائل ، فتهيأت له الفرصة كى يجمح

ما شاء له هواه !.. وقد أدركت أنا ذلك ، فتوجست منه خيفة وتوقعت شرا .. فان زوجتى كانت ما تزال .. فى الثلاثين ! ! »

ونهض الرجل من مقعده فى عصبية ، واقترب من النافذة . ثم أشعل سيجارة جذب منها أنفاسا .. وعاد فجلس قبالتى وقد هدأ قليلا ، واستطرد :

« قلت : ان زوجتى حين استراحت من متاعب الحمل والوضع والقلق على الأطفال ، تألقت من جديد وازدادت حسنا وبهاء .. وكأنما أفاقت من دوار المخمور ، فرأت أمامها عالما جميلا حافلا بالمسرات والملذات التى كانت قد نسيتها ، فساءلت ولا بد نفسها : « كيف أستغل الفرصة فلا أدعها تفلت منى ؟.. ان الزمن يجرى ، واللحظة التى تمضى لن تعود ! » .. بل أستطيع أن أتصور أن تفكيرها جرى على هذا النحو : انها قد تزوجت ، لكنها لم تجد فى الزواج أحلامها ، والأمانى التى منوها بها ! وقد تبخرت أكثر آمالها ، وذاقت مرارة خيبة الأمل فى أكثر من وهم من أوهام صباها .. ثم قاست من الزواج طويلا ، وخاصة من انجاب الأطفال على التوالى ، الأمر الذى مزق روحها شر ممزق .. ولكن ها هى قد قدر لها أخيرا — بفضل تدخل الأطباء — أن تستريح من تلك العبودية نهائيا ، وأن تتذوق ما طالما حلمت به : الحب !.. **لكن الحب الذى تريده لا يمكن ممارسته مع زوج استهلكت قلبه عواطف الكراهية المضطرمة والغيرة العمياء .. ومن ثم بدأت تصور لنفسها الحب المشتهى فى صورة أخرى ، فراحت تتلفت حواليها ، كأنما هى تتوقع .. جديدا ! جديدا**

ينقذها من أن تقضى بقية حياتهـا على هذه الوتيرة .. اذ ما معنى أن تضحى بزهرة عمرها من أجل أطفالها ، فى حين أنها ما تزال شابة ، وفى وسعها أن تستمتع بالحياة ؟

« وهكذا اشتعل فيها شبابها من جديد .. وفى نوبة من نوبات تحمسها للانطلاق من عزلتها الطويلة ، عاودها شغفها بالعزف على البيانو ، فعكفت على التمرن عليه بعد انقطاعها أعواما ..

« .. وكانت تلك بداية النهاية ! »

— ٧ —

● **ومرة أخرى** أدار محدثى بصره الكليل الى النافذة ، كمن يبذل مجهودا للسيطرة على نفسه ، ثم أردف : « وفى تلك المرحلة .. ظهر ذلك الرجل ! »

ثم تردد محدثى برهة ، فأدركت أنه يحاول أن يستحضر فى ذهنه صورة غريمه ، وتاريخه معه .. وبعد قليل استطرد : « كان الرجل عازفا على الكمان ، هاويا وليس محترفا ، ينحدر عن أب من أصحاب الأملاك كانت أرضه مجاورة لأرض أبى ، ثم أفلس .. فاضطر أولاده الثلاثة الى شق طريقهم فى الحياة بأيديهم ، وكان هذا الابن — وهو أصغرهم — من نصيب جدته ، فأرسلته الى باريس .. وهنـاك ظهرت موهبته الموسيقية ، فأدخل معهد الموسيقى « الكونسرفتوار » . وحين تخرج فيه — عازفا على الكمان — عاد فى تلك السنة الى وطنه روسيا ، حيث ظهر فى مجتمعاتها .. ودخل بيتى !

« كانت له عينان جذابتان ، وشفتان باسمتان ، وشارب منتظم صغير .. وكان أنيقا ، مرحا ، وسيم الوجه ، رشيق القوام ، يصفف شعره على أحدث طراز ، ويرتدى ثيابا وأربطة عنق تبين عليها مسحة الأناقة الباريسية التى تخلب عقول النساء !

« ذلك هو الرجل الذى كان سبب الكارثة .. لكنى لست حاقدا عليه ، فلو لم يظهر هو لظهر فى حياة زوجتى رجل غيره .. ولقد صور بعضهم مأساتى على أنها نتيجة غيرتى الشديدة المدمرة .. ولكنهم أخطأوا ، فان سبب كل ما حدث هو تلك الهوة الواسعة ، بل الأخدود العميق ، الذى كان يفصل بين طبائعنا منذ اليوم الأول لزواجنا ، وتلك الكراهية الشديدة المتبادلة بيننا .. **وانى لموقن بأن كل الأزواج الذين يعيشون مع زوجاتهم كما كنت أعيش ، لا مفر لهم من اختيار مسلك من أربعة : اما أن يغمضوا أعينهم ، أو ينفصلوا ، أو يقتلوا زوجاتهم ، أو ينتحروا ! !**

« ولقد فكرت فعلا فى الانتحار مرارا ، وشرعت هى فيه مرة : حدث ذلك قبيل الكارثة بقليل ، وكنا نعيش فى شبه هدنة مؤقتة ، لم يكن ثمة سبب لقطعها .. ولكن فجأة بدأت مناقشة ، لسبب تافه كالعادة . قلت ان كاتبا قد منح مدالية فى أحد المعارض ، فاعترضت قائلة : « انه لم يمنح مدالية ، بل وساما ! »

« وبدأ بيننا شجار ، تبادلنا فيه أعنف العبارات .. وفى أمثال هذا الموقف يحس المرء بأنه على حافة مشاحنة

حامية ، وان شيئا يغريه بأن يقتل غريمه ، أو يقتل نفسه !.. واذا النار تسرى فى الهشيم ، فيعجز الانسان عن السيطرة على أعصابه ، ويتملكه الغضب من رأسه الى قدمه ، وتشعر المرأة بمثل هذا وأسوأ منه ، فتتعمد اساءة فهم كل كلمة ينطق بها الرجل ، وتأويلها تأويلا خاطئا .. وتغمس كل كلمة تتفوه بها فى سم مركز ، وتضرب على الوتر الذى تعرفه حساسا عند الرجل !

« وقد كان .. فصحت بها فى صوت كالرعد : « اصمتى ! » .. فاندفعت هاربة من الغرفة فى طريقها الى حجرة الأطفال .. لكنى حاولت اعتراض سبيلها كى أقول كل ما عندى بلا حرج ، وأمسكتها من ذراعها ، فتظاهرت بأنى آلمتها ، وصرخت مستنجدة : « **أنظروا يا أولاد : أبوكم يضربنى !** » .. وبعد مشادة حامية تركتها غاضبا ومضيت الى غرفة المكتبة ، حيث جلست أحرق الارم وأدخن سيجارة ، وأفكر .. **فكرت فى ألف خطة وخطة للانتقام ، وللتخلص منها ، أو الفرار الى أمريكا والاختفاء عنها !.. فكرت فى التعرف الى نساء أخريات وانشاء علاقات جديدة .. فكرت فيما أزمع فعله بعد تخلصى منها ، بطلاقها ، أو موتها ..!**

« وفيما أنا أفكر ، جاءتنى مربية الأطفال تسألنى متى تعود سيدتها ، فقد خرجت من البيت على أثر مشادتنا .. وجاءنى الخادم يسألنى : هل يعد الشاى ؟.. وعلى مائدة الشاى نظر الى الأطفال نظرات متسائلة ، حيرى ، صامتة !

« وانقضت الأمسية دون أن يظهر للغائبة أثر ! فتجاذبتنى فكرتان ، وشعوران : شعور بالحقد عليها ، لأنها حيرتنى

وحيرت الأولاد بغيابها ، فى حين أنها سوف تعود آخر الأمر .. وشعور بالخوف من أن لا تعود ، أو أن تقدم على ايذاء نفسها !

« وحلت الساعة الحادية عشرة ، فالثانية عشرة .. وهى لم تعد !.. وحاولت أن أشغل نفسى عن التفكير فى أمرها بأى شىء : بكتابة بضعة خطابات .. بالقراءة .. لكنى عجزت عن أن أفعل شيئا ، فجلست فى غرفة المكتبة غاضبا مغيظا ، أفكر .. وأصغى الى دقات الساعة .. الثالثة صباحا ، فالرابعة .. ولا أثر لها !.. وأخيرا غلبنى النعاس قرب الفجر .. وحين صحوت ، لم يكن قد ظهر أى أثر لها بعد !

« وجاءت أختها قبيل الظهر .. جاءت موفدة من قبلها تقول انها فى أسوأ حال ، وتطلب منى أن أجد حلا للموقف .. فأكدت لها أننى لن أتخذ الخطوة الأولى نحو التفاهم ، وليكن ما يكون !.. وذهبت المسكينة بغير أن تصل الى شىء .. لكنها لم تكد تذهب ، ولم أكد أرى جزع الأطفال وأساهم ، حتى وجدتنى مستعدا لأن أتخذ الخطوة الأولى ، بل متلهفا على اتخاذها .. ولكن كيف ؟

« وقرب الساعة الثالثة ، عادت ! .. والتقينا ، لكنها لم تفه بكلمة .. وحين جاءت مناسبة للحديث ، اشتبكنا فى مناقشة هادئة ، قالت أثناءها انها لم تعد للبيت لتبقى بل لتأخذ الأطفال وتمضى ، فاننا لم نعد نستطيع العيش تحت سقف واحد ! .. وتطور النقاش بيننا ، وفجأة صاحت منفعلة وهرعت الى غرفتها ، ثم أغلقت الباب وراءها وأدارت المفتاح فى القفل !.. طرقت الباب مرارا ، ولا مجيب .. فلبثت أنتظر والغضب يهز بدنى هزا .. وحين يئست ، تركتها ومضيت .

« وبعد نصف ساعة جاءتنى ابنتى « ليزا » تبكى بحرقة

وتقول ان أمها لا تجيب أى طارق !.. فمضيت مع الصغيرة الى الحجرة واتكأت بظهرى على الباب بكل قوتى ، حتى لا ن وانفتح .. فهرعت الى فراشها . كانت ممددة فوقه بثيابها وحذائها ، فى وضع غير مريح ، وعلى المائدة زجاجة « أفيون » فارغة !

« .. وحين عادت بعد جهد الى وعيها ، انهمرت دموعنا وطابت خواطرنا .. لكن قلب كل منا كان عامرا بنفس الحقد الدائم على الآخر ، مضافا اليه شعور جديد بالحنق من أجل الألم الذى سببته المشادة الأخيرة لكلينا ، والذى كان كل منا يلقى مسئوليته على غريمه !

● ●

● « تلك كانت حالنا حين جاء ذلك الرجل الى موسكو ، وظهر فى حياتنا ! .. كان اسمه « تروخاشنسكى » ، وقد زارنى ذات صباح فى بيتى ، وكانت بيننا فى الماضى البعيد علاقة طيبة ، فاستقبلته مرحبا .. ورغم أن مظهره الجديد لم يعجبنى ، منذ النظرة الأولى ، فان قوة غامضة مدمرة جعلتنى لا أحاول ابعاده عن محيط حياتنا ، بل أسعى على العكس الى تقريبه .. وقد كان كلا الأمرين فى امكانى ! .. فأى شىء كان أبسط من أن أكلمه بفتور بضع دقائق ، وأن أودعه فى نهاية الزيارة بغير أن أقدمه الى زوجتى ؟

« لكنى لم أفعل ، بل جاذبته أطراف الحديث بطلاقة ودية . حدثته بما سمعته عن عزفه ، وسألنى عن هوايتى القديمة للعزف ، فذكرت له أننى هجرتها ، وأن زوجتى هى التى تعزف الآن ببراعة ..

« ثم قدمته الى زوجتى . وفى الحال بدأت بينهما محادثة متشعبة عن الموسيقى ، أبدى لها خلالها طيب استعداده

لتمرينها حتى تبلغ مرحلة الاجادة التامة . **وكانت زوجتى فى تلك الساعة ـ كالعهد بها فى المدة الأخيرة ـ متألقة فاتنة ، ذات جمال آسر .. وظهر لى بوضـوح أنها قد أعجبت به للوهلة الأولى .. بل أكثر من ذلك أنها سرت حين عرض عليها أن يدربها ، وبدا سرورها على وجهها !..** لكنها ـ حين التقى بصرها ببصرى ـ أدركت شعورى بازاء المسألة ، فتغير تعبير وجهها .. وبدأت بيننا مباراة الخداع المعتادة : ابتسمت أنا مظهرا ترحيبى بالاقتراح .. فنظر هو اليها كما ينظر الرجل الداعر الى المرأة الجميلة ، متظاهرا بأن لا شىء يهمه من أمرها غير الموضوع الذى يتكلم بشأنه .. أما هى فحاولت أن تبدو طبيعية ، لكن نظرته ـ وابتســـامتى الكاذبة التى تنبىء عن غيرتى ، والتى كانت هى تفهم مدلولها جيدا ـ عكرتا هدوءها !

« **ولاحظت أنه منـذ رمقها بنظرته الأولى تغيرت نظرتها والتمعت عيناها ببريق خاطف ، وكأن تيارا كهربائيـا قويا قد سرى بينهما ، فأحدث نوعا من التوافق والانسجـام بين نظراتهما ، وابتساماتهما : كانت تحمر وجنتاها ، فينـدفع الدم الى وجهـه .. وتبتسم ، فيبتسم !..** تحـدثا عن الموسيقى ، وعن باريس ، وعن كثير من الموضوعات التافهة .. وأخيرا نهض لينصرف ، فوقف برهة يثرثر باسما وقبعته فى يده مستندة الى فخذه .. وكان ينظر لحظة اليها ، ولحظة الى .. كأنما ينتظر ما سوف نفعله !

« وبعد ثلاثة أيام ، عدت الى البيت بعد حضورى أحد المعارض ، فلم أكد أدخل حتى لمحت معطفه على المشجب فى الردهة .. وكان باب الحجرة التى فيها البيانو مغلقا ، ولكنى استطعت تمييز صوته وصوت زوجتى بين أصوات النقر على البيانو ، وكان واضحا أنهما ينقران خصيصا لاخفاء وطمس معالم كلماتهما ، وربما قبلاتهما !.. يا الهى ، أية عاصفة ثارت

وقتئذ فى كيانى ! ؟ ان مجرد تذكرى الشعور الوحشى الذى انتابنى فى تلك اللحظات يرعبنى الآن ، فقد بدا قلبى كأنما توقف عن الخفقان ، ثم أخذ ينبض نبضات سريعة عنيفة كدق المطارق الثقيلة .. فتقدمت نحو الباب .. وفتحته !

« كان هو جالسا الى البيانو يداعب أصابعه بتلك النقرات الخفيفة ، وهى واقفة بقربه متكئة الى ظهر البيانو . ورأتنى هى أولا ، فنظرت الى .. **ولست أدرى أكانت قد فوجئت فتظاهرت بأنها لم تفاجأ ، أم أنها لم تفاجأ حقيقة .. على أية حال فانها لم تظهر أى اضطراب ، ولا تحركت** .. وانما اكتفت بالقول فى لهجة لطيفة لم أعتدها منها : « كم يسرنى أنك جئت ، فنحن فى حيرة بشأن اختيار القطع التى سوف نعزفها يوم الأحد » !.. وأثارنى قولها « نحن » ، لكنى كتمت غيظى وانحنيت للرجل فى صمت وأنا أصافحه ، فضغط على يدى وجعل يستشيرنى فى أمر الألحان المطلوبة .. **وبالرغم من أن كل ذلك كان طبيعيا ومعقولا ، بحيث يصعب ايجاد مأخذ فى شأنه ، فقد كنت واثقا من أن روايتهما كاذبة ، وأنهما كانا يدبران خطة لخداعى !**

« وطيلة ذلك اليوم لم أحدثها فى شىء ، فقد كان قلبى عامرا بالحقد عليها ، الى درجة خشيت معها على نفسى !.. وعلى مائدة الغداء ، سألتنى عن موعد رحيلى الى بلدتى لحضور دورة انعقاد المجلس المحلى — كما كنت قد أنبأتها من قبل — فأجبتها بأنى سوف أسافر فى الأسبوع التالى .. ثم قضينا وقت الغداء صامتين . وبعد الفراغ منه مضيت الى غرفة المكتبة دون أن أنطق بحرف .. وكانت هى قد

انقطعت فى المدة الأخيرة عن الدخول على فى تلك الغرفة ، حين كنت أخلو الى نفسى .. لكننى سمعت خطواتها تقترب ، **واذ ذاك وثب الى رأسى فجأة خاطر مروع : خيل الى أنها – مثل زوجة « أوريا الحثى » التى حدثتنا عنها التوراة – قد ارتكبت المعصية فعلا وجاءت تتمسح فى زوجها كى تخفى زلتها ! .. وفتح الباب ، وبرزت خلاله بقوامها الفارع الأنيق ، وعلى وجهها وفى عينيهـا مسحة من الخجل ، والرغبـة فى المصالحة ! ..** فقويت شكوكى ، واحتبست أنفاسى من فرط رغبتى فى قمع غيظى ، ولم أجد بدا من اشـعال سيجارة لتهـدئة نفسى .. فقالت وهى تجلس الى جوارى على الأريكة : « أيليق أن آتى لأجلس معك كى نتحـدث ، فتهرب من الحـديث بتـدخين سيجارة !؟ » .. والتصقت بى ملاطفة ، فابتعدت عنها متأففا .. ثم بدأ الشجار المألوف ، وحمى وطيســه .. حتى قالت لى : « لقد أصبحت حقا رجلا لا يطاق .. حتى الملائكة لا يمكن أن تحتمل تصرفاتك ! » .. واذ ذاك تملكنى حقد هائل عليها بشكل لم أعهده فى نفسى من قبل ، ولأول مرة أحسست بدافع يغرينى بأن أعبر عن ذلك الحقـد بالقوة الجسمانية ، فوثبت من مقعدى وتقدمت نحوها وأنا أزمع ارهابها .. وغلى مرجل غضبى فصحت فيها بأعلى صوتى : « اخرجى من هنا .. والا قتلتك ! » .. وأمسكتها من ذراعها ، ولابد أن هيئتى كانت رهيبة ، فقد تولاها الخوف الى درجة أعجزتها عن الخروج أو التحرك من مكانهـــا ، وانما اكتفت بأن تقول : « فاسيا .. ماذا بك ؟ »

.. فصحت بصوت أعلى وأعنف : « قلت لك اذهبى !..»

ما من أحد سواك يستطيع أن يخرجنى عن طورى .. وعندئذ لن أكون مسئولا عما قد أفعل !» . وشعرت بميل شديد الى قتلها ، لكنى تماسكت .. وأردت أن أشفى غليلى بتحطيم شىء ما ، أى شىء ، فتناولت أداة ضغط الورق الثقيلة من فوق المكتب وضربت بها الأرض ، بجوارها ، وأنا أصيح صارخا : « أخرجى ولا تربنى وجهك ، والا فلست مسئولا عما قد أفعل ! » .. وقذفت ببقية أدوات المكتب على الأرض فى عنف .. فخرجت تعدو من الغرفة مذعورة !

« وبعد ساعة جاءتنى المربية تقول : ان زوجتى مصابة بنوبة عصبية .. فذهبت اليها ، ووجدتها تبكى وتضحك وهى ترتجف بشدة ! .. ولم يعاودها هدوؤها الا فى صباح اليوم التالى حين تهادنا من جديد ، بتأثير نوبة من نوبات ما يمكن أن نسميه بالحب أو « الشوق » الزوجى ! .. وحين هدأت ، أعترفت لها بأننى أغار من عازف الكمان ! لكنها لم تضطرب أو ترتبك ، بل ضحكت ضحكة طبيعية هادئة وقالت لى : « أمن المعقول أن تحس أية امرأة محترمة نحو رجل كهذا بغير الاعجاب الفنى بموسيقاه ؟ .. ولكن اذا أردت فأنا على استعداد للكف عن استقباله فى بيتنا بعد الآن . أما حفلة يوم الأحد فيمكنك الغاؤها والاعتذار الى المدعوين منذ اليوم بزعم أنى مريضة مثلا ، ولئن كان هناك ما يضايقنى فى ذلك ، فهو أنى أخشى أن يتوهم الرجل من هذا التصرف انه خطر الى هذا الحد واننا نخشاه ، فانى ضنينة بكرامتى أن تشوبها شائبة كهذه .. »

« وأعتقد أنها كانت مخلصة فى كلامها ، وانها كانت تقصد

به أن تثير عباراتها فى نفسها موجة من الاحتقار للرجل ، تحميها من سلطانه عليها ! .. لكنها لم تنجح فى محاولتهـا ، وجرى التيار على غير ما أرادت ..

◉ ●

◉ « **وحل** يوم الأحد .. وفى بداية الحفـلة لم أسمح لنفسى بأن أغار من الرجل ، لكننى برغم ذلك لم أكن مستريحا ناعم البـال .. فجعلت أرقب حركاته وحركات زوجتى ، وأحصى عليهما نظراتهما طيـلة الوقت .. حتى بدأ العزف فأسمعانا مقطوعة بيتهوفن المسماة « لحن الى كرويتزر » ، وهى مقطوعة رهيبة فى نظرى . **يقولون أن الموسيقى تسمو بالروح ، وهـذا هراء وتخريف ، فهى لا تسمو ولا تنحط بالروح .. وانما هى تثير !.. ان الموسيقى فن خطر ، وهى فى الصـين تخضع لسيطرة الحكومة واشرافها ، وهذا ما يجب أن تفعـله بقية الحكومات !**

« ونجحت السـهرة نجاحا عظيما ، وبعـد أن انصرف المدعوون تقدم منى « تروخاشفسكى » مصافحا ومودعا ، وكان قد علم منى أننى أعتزم السفر الى بلدتى بعد يومين ، وكان هو بدوره ينوى القيام برحلة الى الخارج ، فقال انه يأمل أن تتاح له ليلة شائقة كهذه حين أعود الى موسكو .. ووقعت عبارته على قلبى بردا وسلاما ، فقد فهمت منها أنه لا يفكر فى أمكان التردد على بيتى فى فترة غيابى .. ولأول مرة صافحته مصافحة ودية من صميم قلبى ، وشكرته على احياء الحفلة بموسيقاه الجميلة .. ثم ودع زوجتى وداعا نهائيا ، بدا لى طبيعيا للغاية ، وغير متكلف .. وانتهت السهرة عند هذا الحد ، والعلاقة بينى وبين زوجتى على خير ما يرام !

— ٨ —

« .. **وبعد** يومين غادرت موسكو ، أهدأ ما أكون بالا وأسعد حالا منى فى أى وقت مضى منذ زواجنا .. وحين بلغت بلدتى وجدت فى انتظارى مهاما شاقة وعملا متراكما يقتضينى البقاء فى مكتبى عشر ساعات كل يوم ، فلبثت يومين على هذا المنوال .. وفى اليوم الثالث تلقيت خطابا من زوجتى تتحدث فيه عن الأطفال ، وعن عمها ، وعن المربية ، وعن الأشياء التى اشترتها .. **ثم ذكرت على هامش الخطاب أن « تروخاشفسكى » قد زارها وأحضر المقطوعات الموسيقية التى كان قد وعد بها ، وأبدى استعداده لأن يعزفها بمصاحبتها ، لكنها اعتذرت بلباقة ..!**

« لم أكن أذكر أن الرجل كان قد وعد باحضار مقطوعات ، بل تذكرت جيدا أنه ودعنا باعتبار أنه لن يعود فى القريب .. ومن ثم كان لتلك العبارة التى وردت فى خطاب زوجتى أسوأ الأثر فى نفسى ، لكن مشاغلى حالت بينى وبين التوقف عن العمل للتفكير فى مدلولها ، حتى عدت الى غرفتى فى المساء فأعدت قراءة الرسالة . بدت لى لهجتها فيها غير طبيعية ، علاوة على ما حملته من نبأ تردد « تروخاشفسكى » على البيت أثناء غيابى !.. **فاستيقظ وحش الغيرة المخيف فى أعماقى وشرع يزأر فى قفصه ، محاولا أن ينطلق .. لكنى كنت أخشى بأسه فسارعت الى اعتقاله ، قائلا لنفسى : « ما أبشع هذه الغيرة .. ان كل ما فى الخطاب طبيعى ، ففيم كل هذا ؟ » ..** وتمددت على فراشى ، وشرعت أفكر فى عمل اليوم التالى .. ومن عادتى ألا أنام بسهولة حين لا أكون فى غرفتى المألوفة ، لكنى فى هذه المرة أغفيت من فورى ..

« وفجأة صحوت على احساس يشبه لسعة كهربائية ! صحوت وأنا أفكر فى زوجتى وفى « تروخاشفسكى » ، وفى

أنهما قد انتهزا فرصة غيابى فعاثا فى البيت فسادا !.. فسحق الرعب والغضب قلبى .. لكنى ما عتمت أن هدهدت هواجسى، قائلا فى سرى : « أى سخف هذا الذى يخطر لى ؟ ! .. ما من أساس واحد لهذه الشكوك التى تعذبنى .. فكيف أهين زوجتى وأهين نفسى بالتفكير فى شىء من ذلك ؟.. ثم هل يعقل أن سيدة محترمة ، ربة أسرة وأم أطفال ، كزوجتى ، تقع فجأة فريسة لرجل كهذا ذى سمعة غير حميدة ؟.. أى هراء ! ؟ »

« ومع ذلك فقد جن جنونى : كيف تركتها وجئت الى هذه البقعة ؟ !.. ألم يكن واضحا منذ سهرة الأحد أنهما قد اتخذا فى تلك الليلة الخطوة الأخيرة نحو التفاهم ؟.. وأن سفرى قد أزال كل حاجز يقف بينهما ؟.. وتذكرت حركاتهما وسكناتهما طيلة الحفلة .. كيف حرص كلاهما على تجنب النظر الى الآخر ما استطاع ، وكيف جلسا متجاورين على مائدة العشاء ، وكيف صب لها الماء فى قدحها فنظرت اليه وابتسمت ابتسامة يشوبها الخجل .. **الخجل مم ؟ لا شك أن سرا بينهما هو الذى جعلها تخجل .. واستبد بى رعب هائل ، وهمس صوت فى داخلى : « نعم ، ان الخطوة الأخيرة من جانبهما قد اتخذت ! »** .. لكن صوتا مضادا انبرى للأول يسفهه : « انك مجنون .. هذا غير معقول ! »

« وأرهقتنى الوحدة فى الظلام ، فأشعلت ثقابا ، واذ ذاك شعرت بالرعب من البقاء فى تلك الغرفة الصغيرة ، بجدرانها المكسوة بالورق الأصفر ، فبدأت أدخن .. سيجارة بعد سيجارة ، كى أخمد بالدخان والضباب قوى عقلى وأخنق أفكارى .. ولم أنم طيلة تلك الليلة . وقرب الفجر كان قد صح عزمى على الفرار من هواجسى بمبارحة البلدة فى الحال .. عائدا الى موسكو !

« وفى منتصف الطريق انكسر شىء فى العربة اضطرنا الى الانتظار حتى تم اصلاحه ، لكن ذلك كلفنى كثيرا .. فقد تسبب فى عدم لحاقى بقطار موسكو السريع ، الذى يبلغها فى الساعة الخامسة بعد الظهر ، وألزمنى أن أسافر بالقطار التالى الذى يصل فى منتصف الليل !

« وكانت المسافة التى علينا أن نقطعها بالعربة خمسة وثلاثين فرسخا ، تليها رحلة بالقطار تستغرق ثمانى ساعات .. وقد استمتعت برحلة العربة متعة كاملة : فقد كانت الجياد سريعة ، والطريق معبدا ، والضباب خفيفا ، والقمر ساطعا .. فنسيت كل شىء عما قد ينتظرنى فى موسكو .. أو لعلى كنت أعرف ما ينتظرنى ، فأردت أن أتذوق أقصى ما يمكن تذوقه من مباهج الحياة !

« لكن سكينة خاطرى زالت بمجرد انتهاء رحلتى بالعربة ووضع قدمى فى القطار .. فقاسيت خلال الساعات الثمانى — التى استغرقها السفر بالقطار — أبشع صور الآلام النفسية ، مما لن أنساه ما حييت .. ولعل السبب كان شعورى ، وأنا أتخذ مقعدى فيه ، اننى قد اقتربت من نهاية الرحلة ، وصرت أمام « الكارثة » وجها لوجه !.. **وهكذا فقدت من فورى سيطرتى على خيالى ، فجمح بى بكل عنفوانه ، وشرع يستعرض لى صورا متعاقبة تثير غيرتى .. وكانت كلها تدور حول محور واحد : ما حدث خلال غيبتى ، وكيف انتهزت اللعينة الفرصة فخانتنى !.. وهكذا تملكتنى مجموعة من مشاعر الغضب ، والحنق ، والمذلة !**

« وكانت عربة القطار قد خلت الا منى ، فزادتنى الوحدة ثورة وهياجا .. صرت كالوحش فى القفص ، أقفز من مقعدى الى النافذة ، ثم أعود منتقلا الى مقعد آخر ، كأنما أحاول بذلك أن أجعل القطار يزيد من سرعته !.. وأخيرا قلت لنفسى :

« يجب أن أفكر فى شىء آخر .. فى صاحب الحانة التى تناولت فيها الشاى أثناء المرحلة الأولى من رحلتى .. ان له حفيدا فى سن ابنى « فاسيا » . وللحال وجدتنى أفكر فى « فاسيا » .. يا للصبى التعس ، انه لا شك قد رأى غريبا يقبل أمه ! ترى أى أثر يتركه هذا المشهد فى نفسيته الغضة !.. ولكن ماذا يهمها من ذلك ؟.. يكفيها أنها عاشقة !

« ومن جديد عادت الأفكار تتجاذبنى ، فقاسيت عذابا مروعا . وكان أفظع ما عذبنى جهلى بحقيقة ما عساه قد حدث ، وشكى فيه وفى مداه ، وحيرتى بين حبى وكراهيتى لزوجتى !.. **حتى بلغ بى الأمر مرحلة التفكير فى وضع حد لآلامى ، وراودتنى نفسى جديا على القفز من نافذة القطار .. فان ذلك كفيل على الأقل باراحتى من شكوكى . ولكن ، هل أنهى حياتى وأتركها هى تمرح على هداها ؟ مستحيل !.. بل يجب أن أفعل شيئا يجعلها تتألم ، كى تقدر كم تألمت !**

— ٩ —

« **وأخيرا** وصل القطار ، بعد منتصف الليل ، فهبطت منه وفكاى يرتعشان ، وأسنانى تصطك من شدة انفعالى !.. وبحركة آلية تبعت جموع الخارجين من المحطة حتى موقف العربات ، حيث اتخذت مقعدى فى احداها ، وأمرت الحوذى بالمسير .. وأمام باب البيت نقدته أجره وهبطت !

« وكان النور مضاء فى غرفة الاستقبال ، رغم أن الساعة بلغت الواحدة صباحا !.. لكنى لم أحاول تفسير هذه الظاهرة ، فقد كنت واثقا مما هنالك .. فصعدت السلم بخطى سريعة ، وفتحت الباب فى خفة .. وكان أول ما لفت نظرى فوق الشماعة التى فى الردهة : معطفه !

« كان يجب أن أفاجأ وأدهش .. لكنى لم أفعل .. وانما

قلت لنفسى فى هدوء : « هذا ما توقعته » .. لكن انفعالى عاودنى فى الحال فأحسست كأنى أختنق ، ولم أستطع قمع رعشة فكى الأسفل ، بل كدت أشهق بالبكاء .. لولا أن صاح بى صوت خفى يحذرنى : « لا تكن عاطفيا ولا تذرف دموعك ، لئلا يحسا بك فيتخذا أهبتهما لدخولك ، وبذلك تضيع عليك فرصة اثبات جريمتهما ، وتعيش فى جحيم الشك والحيرة الى الأبد ! »

« وبلغت سمعى أصوات مختلطة : صوتاهما ، وصوت الأطباق والسكاكين . انهما يتناولان عشاءهما آمنين ، ولم يحسا بدخولى !.. واذن فلأتصرف سريعا وفى حزم .. **ولكن ، ماذا أفعل ؟ كيف أعاقبهما وأضع حدا لصلتى بها ؟ .. يا للفاجرة ، ان خلوتها به فى بيتها ، وفى منتصف الليل ، بغير مراعاة للمربية والأطفال الذين فى الحجرات المجاورة ، لدليل على مبلغ استهتارها وجرأتها ، بل وقاحتها !..** ولكن لعلها أرادت أن تجعل من تلك الجرأة الوقحة برهانا على براءة خلوتهما فى نظر الأطفال !.. أما بالنسبة لى فكل شىء واضح أكيد .. كل ما خشيته ، أن يستطيعا التملص من التهمة بالتذرع بمبرر قوى معقول لموقفهما ، يحرمنى من راحة اليقين والاقتناع باثمهما .. ويجردنى من سلاح اثباته بالبرهان الصريح !

« وهكذا رأيت أن أبادر بالتصرف : فتسللت الى حجرة الأطفال ، حيث وجدتهم مستغرقين فى النعاس ، لكن دخولى أوشك أن يوقظ المربية .. وأثار هذا الاحتمال فى شعور الرثاء لنفسى ، والحسرة على موقفى الذليل .. فبادرت بالفرار على أطراف أصابعى الى الممر ، ومنه الى غرفتى ، حيث ارتميت على فراشى ، وأطلقت لنشيجى ودموعى العنان .. وفى رأسى دارت هذه الخواطر : « أهذا مصيرى ، أنا الرجل الأبى ، سليل أسرتى العريقة .. أنا الذى طالما حلم

ببهجة السعادة البيتية .. أنا الزوج الذى لم يفرط لحظة فى اخلاصه لزوجته .. أن أنكب بزوجة ، أم خمسة أطفال ، تعشق رجلا غريبا لأن له شفتين حمراوين ؟! كلا ، انها ليست آدمية ، انها حشرة دنيئة .. ومن يدرى ، لعل هذا كان يحدث منذ بعيد ، ولعل واحدا من أطفالى الذين أعتز بأبوتهم ، منحدر من غير دمى !؟ »

وكان أول ما فعلته أن خلعت حذائى ثم تلصصت الى الغرفة المجاورة ، حيث كانت مجموعة من الأسلحة المختلفة والخناجر معلقة على الجدار ، فاستللت خنجرا دمشقيا حادا من غمده ، ثم تسللت على أطراف أصابعى نحو باب غرفة الاستقبال ، حيث كانا .. وفتحت الباب !

« لن أنسى التعبير الذى ارتسم على وجهيهما حين رأيانى ! لن أنساه لأنه أمدنى بشعور من الغبطة الضارية ، فقد كان تعبيرا ناطقا بالرعب ، والفزع ، واليأس .. وهذا ما كنت بحاجة اليه !.. كان هو فيما يبدو جالسا الى المائدة ، فلما فوجىء برؤيتى قفز واقفا على قدميه بغير وعى والرعب فى عينيه .. أما هى فاختلط الرعب على محياها بتعبير آخر ، تعبير لو لم أطالعه على وجهها فربما ما كان ليحدث ما حدث !

.. كانت فى عينيها نظرة تنم عن الغيظ ، والضيق ، والحنق على ، لأنى بدخولى قطعت عليها متعة خلوتها بحبيبها .. وبدا كأنها لا تتمنى أكثر من تركها بغير ازعاج فى هنائها الحاضر !

« وقفت على عتبة الباب لحظة ، مخفيا الخنجر وراء ظهرى . وخلال تلك اللحظة ابتسم هو .. ثم قال بصوت متخاذل : « كنا نتمرن على عزف بعض الألحان معا » .. بينما قالت هى بنفس اللهجة : « اننى لم أكن أنتظرك الليلة .. »

« لكن أحدا منهما لم يتم عبارته ، فقد عاودنى ذلك الميل الجنونى الى التحطيم والتدمير ، واستعمال العنف ، فانسقت

فى تياره واستسلمت له !.. وقبل أن يزيد أحدهما حرفا ألقيت بنفسى عليها ، وأنا ما أزال أخفى الخنجر وراء ظهرى ، لكن الوغد تبين نيتى ، فأمسك بذراعى صائحا : « فكر فيما أنت مقدم عليه .. النجدة ! » لكننى استطعت تحرير ذراعى من قبضته ، وبغير أن أنطق بكلمة اندفعت نحوه هو .. والتقت أعيننا ، فشحب وجهه كالأموات ، بما فى ذلك شفتاه ، ولمعت عيناه ببريق غريب ، ثم — على غير انتظار منى — انحنى بجذعه فجأة ومرق من تحت البيانو ، ثم من الباب .. لائذا بالفرار !.. وفيما أنا أهم باللحاق به ، شعرت بثقل على ذراعى اليسرى يعوقنى عن الانطلاق فى أثره .. وكانت هى !.. لكننى همت بمحاولة أخرى للتخلص منها ، واذ ذاك تعلقت بكل ثقلها بذراعى واستماتت فى التشبث بها .. فألهب تصرفها غضبى ، وأمدنى بعنف جبار .. وبحركة مفاجئة سحبت ذراعى من قبضتها ولكمت بمرفقى وجهها بكل قوتى .. فصرخت من الألم وأطلقت برغمها ذراعى ، فتأهبت لمطاردة الرجل .. لكننى تنبهت فورا الى أنه من السخف المزرى أن يطارد زوج عشيق زوجته وهو متجرد من حذائيه .. فعدلت عن اللحاق به ، واستدرت اليها هى !

« كانت قد تهالكت على أريكة ، وفى عينيها نظرات الهلع والمقت الشديد لى ، نظرات الفأر حين تنطبق عليه المصيدة ! .. لكننى برغم ذلك كنت خليقا بأن أتمالك نفسى فلا أفعل ما فعلت ، لو أنها فقط صانت لسانها .. لكنها بدأت تتكلم وهى قابضة على يدى التى فيها الخنجر : « عد الى صوابك . ماذا أنت فاعل ؟ ماذا دهاك ، أقسم لك أنه لم يحدث شىء ! »

« وأثارتنى عبارتها ، واستنتجت منها عكسها بالضبط ! استنتجت أن أسوأ مخاوفى قد تحققت .. فراودنى ميل الى الرد على كلامها ، ردا يناسب المقام ، والحالة النفسية الفظيعة التى كنت فيها .. أوليس للانفعال أيضا منطقه وقانونه ؟..

فصحت بهـا وأنا أقبض على ذراعهـا : « كفاك كذبا أيتها الملعـونة ! » .. لكنها تخلصت من قبضتى ، فلحقت بهـا وأمسكتها من رقبتها ، ثم دفعتها الى الخلف وأنا أشـدد الضغط ، محاولا خنقها !

« يا لقوة عضلاتها ! لقـد قاومت حتى أطلقت يديها ، فجذبت بهما يدى من حول رقبتها .. وفى تلك اللحظة شعرت أن الفرصة التى انتظرتها قد واتتنى .. فغرست الخنجر فى ضلوعها !

« يقول البعض أحيانا أنهم قد ارتكبوا ما ارتكبوا « فى نوبة جنونية » ، بغير أن يشعروا ! لكن هذا كذب .. فلقد شعرت ، وما زلت أذكر ، كل صغيرة وكبيرة من تفصيلات ذلك الحادث ، بحيث أستطيع أن أجزم بأنى لم أغب لحظة واحـدة عن صوابى وادراكى !.. أدركت اننى كنت أغـرس خنجرى فى ضلوعها ، واننى بذلك قد ارتكبت أمرا فظيعا ـ لم أرتكبه من قبل ـ وأن له عواقب وخيمة ! لكن صورة هـذه العواقب تمثلت فى خاطرى كالبرق ، دون أن تثنينى عن عزمى ، ثم تبعها فورا تنفيذى لفعلتى !.. وخلال تلك اللحظات الخاطفة التى استغرقها التنفيذ ، شعرت بكل مراحله بوضوح : شعرت بمقاومة مشد صدرها السميك للسلاح ، ثم بانغراس حد الخنجر الماضى فى لحمها الطرى .. وأخيرا بمحاولتها القبض على الخنجر بكلتا يديها ، لاعاقته عن التوغل فى جسمها .. كما شعرت بتمزق راحتيها من جراء هذه المحاولة الفاشلة !

« لكن جرأتى تلك لم تدم أكثر من لحظات ، أدركت بعدها اننى أقتل امرأة ، وامرأة عزلاء ، هى زوجتى !.. فملأنى هذا الادراك رعبا ، وبادرت باستلال الخنجر من جسمها ، وبى رغبة غامضة فى مداواة الطعنة التى طعنتها !.. ثم وقفت لحظة جامدا بلا حراك ، بينما وثبت هى واقفة على قدميها وصاحت فى حشرجة ، تنادى المربية : « اغيثينى .. لقد قتلنى ! »

« وكانت المربية قد سمعت الجلبة فجاءت على صداها لترى جلية الأمر .. وحين بلغت عتبة الباب ، كان الدم ينبثق من الجرح ، واذ ذاك فقط أيقنت أنا أن أوان اصلاح ما وقع قد فات ! لكننى لم أستشعر ندما ، بل قلت لنفسى ان ما فعلته كان يجب أن يحدث . وحين بلغت المربية مكاننا كانت زوجتى قد خرت صريعة على الأرض ، فانحنت عليها وهى تهتف مذعورة : « يا للسماء ! » .. وعندئذ ألقيت بالخنجر على الأرض وبارحت الغرفة ، وأنا أسأل نفسى على الفور : « ماذا أفعل الآن ؟ » .. وللحال عقدت عزمى على شىء ، فتوجهت الى غرفة المكتبة ، حيث أخرجت مسدسى ، وكان معبأ ، ثم جلست على مقعد وجعلت أفكر .. وبعد حين ناديت خادمى وكلفته باستدعاء البوليس ، ثم أغلقت الباب على ، وأخرجت علبة سجائرى وثقابى وشرعت أدخن . وقبل أن أفرغ من سيجارتى ثقلت أجفانى .. وتبينت بعد يقظتى اننى نمت حوالى ساعتين ، حلمت أثناءهما اننى تشاجرت مع زوجتى ، لكن خلافنا لم يلبث أن سوى على خير حل .. وعند هذا الحد من الحلم أيقظنى طرق على الباب ، فقلت لنفسى : « لا شك أنهم رجال البوليس ، اذ يبدو أنى قتلتها ! »

« وتكرر الطرق على الباب ، فلم أجب ، بل ركزت همى فى محاولة الاجابة عن هذا السؤال : « أحقا حدث ذلك ، أم اننى واهم ؟ » وأجبت نفسى : « بل حدث فعلا ! » .. وتذكرت مقاومة مشد الصدر لتوغل الخنجر ، ثم انغراس السلاح فى اللحم .. ومرت بسلسلة ظهرى قشعريرة باردة .. « نعم ، لقد وقع ذلك حقيقة .. والآن جاء دورى كى أقتل نفسى .. ولكن ، لماذا أقتل نفسى ؟ »

« .. وقبل أن أجيب نفسى عن تساؤلها ، تجدد الطرق على الباب .. فأرجأت التفكير فى الأمر حتى أعرف أولا من

الطارق ، ووضعت المسدس جانبا وغطيته باحدى الصحف .. ثم قمت ففتحت الباب ..

« كانت الطارقة أخت زوجتى ، وهى أرملة حمقاء ، لم تكد ترانى حتى ابتدرتنى : « فاسيا ، ماذا فعلت ؟ » .. وانهمرت دموعها المطواعة ، ثم استطردت : « انها تحتضر .. كذلك قرر الدكتور ايفان .. »

« قلت : « أهو قد حضر ؟ »

« قالت : « نعم ، بربك اذهب اليها يا فاسيا .. يا للفظاعة ! »

« ترددت لحظة ، وأنا أفكر فيما كنت قد اعتزمته من وضع حد لحياتى .. ثم تبعتها .. وفيما أنا أعبر الممر المؤدى الى غرفة الجريحة ، عاودنى الأمل فى أن يكون كل ذلك محض كابوس ! لكن رائحة اليود والمطهرات الطبية التى ملأت خياشيمى بددت هذا الأمل ! .. والتقيت فى طريقى بابنتى « ليزا » ، فنظرت الى بعينين فزعتين .. ثم بلغت باب الغرفة ، ففتحته ودخلت ..

« كان أول ما وقع عليه بصرى فى الغرفة ــ فوق أحد المقاعد ــ ثوب زوجتى الرمادى الذى كانت ترتديه ، ملطخا بالدم .. ثم رأيتها هى ، راقدة على فراشنا المشترك ، وركبتاها مرفوعتان ، وجسدها كله قد أسند على عدد من الوسائد .. وكان الجرح مغطى بضمادات تفوح منها رائحة العقاقير الجراحية الثقيلة .. وراعنى من الجريحة وجهها المحتقن ، الضارب الى الزرقة ، ورقعة من السواد تقع فى طرف أنفها وتحت عينيها ، أدركت أنها تخلفت عن لكمتى اياها بمرفقى ، حين كانت تحاول أن تعوقنى عن اللحاق بعشيقها ! .. أما جمالها فلم أقف له على أثر ، من فرط الاعياء الذى حل بها ، والدم الذى نزفته ..

« وقفت على عتبة الباب مترددا ، أتأملها فى سكون .. لكن أختها أهابت بى مشجعة : « تقدم نحوها ! » .. فقلت

لنفسى : « نعم فلأذهب .. اذ ربما تريد أن تعترف لى باثمها .. فهل أصفح عنها ؟ .. نعم ، فهى تحتضر ، ومن اللياقة أن أمنحها الغفران .. »

« واقتربت منها .. فرفعت عينيهـا الى بصعوبة ، ثم قالت بعد جهد ، وفى لهجة متقطعة : « لقد قتلتنى .. » .. وفى عينيها اللتين خيمت عليهما علائم الألم القاسى ، والدنو من الموت ، طالعت ظل ذلك المقت الشديد لى ! .. وبعد لحظات ، استطردت تقول : « لكن الأطفال على أية حال .. لن يبقوا معك .. بل ستأخذهم أختى » .

« ثم صمتت ، فلم تعرض بكلمة للموضوع الجوهرى الذى يهمنى قبل غيره .. موضوع خيانتها واثمها الفظيع ! .. وبعد برهة حانت منها نظرة الى الباب، حيث وقفت أختها وبجوارها الأطفال ، فشهقت باكية وغمغمت : « فلتنعم بما جنت يداك .. أواه ، ماذا فعلت بى ؟ »

« نظرت الى الأطفال ، والى وجههـا الذى يضمحل .. ولأول مرة نسيت نفسى ، وحقوقى ، وكرامتى .. ولأول مرة تبينت فى زوجتى مخلوقا بشريا ، فكبرت جريمتى فى عينى ، ونازعتنى نفسى بقوة الى أن أنحنى على يديها وأسألها الصفح .. لولا اننى جبنت ، وخذلتنى شجاعتى !

« أما هى فظلت صامتة ، مغمضة العينين ، بادية الضعف والذبول .. ثم فتحت عينيها ، وتغضن جبينها وهى تشـير الى بالغروب عن وجهها ، قائلة : « لماذا فعلت هـذا ؟ » .. فصحت مستغفرا : « اغفرى لى ! » .. واذ ذاك تحاملت على نفسها ، ورفعت جذعها عن الوسائد قليلا ، ثم صاحت وهى تحدجنى بنظرات محمومة : **« أغفر ؟ أى هراء .. ؟ لو أمكن فقط أن أعيش ! لقد نفذت ارادتك . انى أكرهك . أكرهك ! »**

... ثم تملكها الهـذيان فصاحت فزعة : ((أطلق النـــار ، فلست بخائفة .. ولكن اقتلنا جميعا .. انه قد ذهب .. انه قد ذهب !))

((وظلت تهذى الى النهاية ، فلم تتعرف على أحـــد .. وماتت عند الظهر !

● ●

● ((.. **ثم ألقى** القبض على، وأودعت السجن .. وفى اليوم الثالث أخذونى الى البيت كى أراها لآخر مرة ، فى نعشها !.. وعندئذ ، حين رأيت وجهها الميت وجسدها المسجى ، أدركت لأول مرة فظاعة ما اقترفت ! .. أدركت أننى قتلتها حقا .. واننى وحدى الذى استل الحياة من جسدها الدافىء المتوثب، وأحالها جثة كالشمع ، باردة ، بلا حراك ! .. كما أدركت أنه ما من سبيل الى اصلاح ما وقع واعادة التعسة الى الحياة ! ان من لم يجرب هذا الموقف لا يمكنـــه قط أن يقـدر هوله وبشاعته !))

وأجهش محـدثى بالبكاء ، بحرقة تســتدر الرثاء .. وأخذ جسده كله ينتفض كالمحموم ، من شدة الانفعال .. ثم هدأ تدريجا ، وبقى صامتا فترة .. قال بعدها : ((**وبقيت فى السجن أحد عشر شهرا ، فى انتظار المحاكمة .. ثم برأونى ، بحجة أننى قتلتها دفاعا عن شرفى ! .. وهأنذا أمضى الى بيتى الصغير فى الريف ، كى أقضى فيه ما تبقى من عمرى ، وحيـدا .. فقد حرمونى أطفالى الخمسة ، بزعم أنى لا أصلح لتربيتهم بحكم كونى .. قاتلا !))**

وارتسمت على فم محدثى ابتسامة سخرية مريرة ، ثم لاذ بالصمت ، وشرد بصره الى بعيد .. كمن يرصد نجمـه فى أفق سحيق .. مجهول !

....

مطبوعات كتابى

صدر من هذه المجموعة حتى الآن :

الكتاب	المؤلف
١ ـ قصة مدينتين	تشارلز ديكنز
٢ ـ ذات الثوب الأبيض	ويلكى كولينز
٣ ـ الخـالدون	ديل كارنيجى
٤ ـ الخاطئة	سومرست موم
٥ ، ٦ ـ حياة امرأة (جزءان)	جى دى موباسان
٧ ـ الخطيئة الأولى ، وفتاة من الاقليم	ألبرتو مورافيا
٨ ـ أوديب (ترجمة الدكتور طه حسين)	سوفوكليس ، واندريه جيد
٩ ، ١٠ ـ مدام بوفارى (جـزءان) ...	جوستاف فلوبير
١١ ـ عاشقات فى الخريف ، و ٢٤ ساعة فى حياة امرأة	ستيفان زفايج
١٢ ـ قلوب ضـالة	رابندرانات طاغور
١٣ ـ ديكاميرون (ألف ليلة وليـلة الايطـالية)	بوكاشيو
١٤ ـ الظمأ للحب (قصة فنلندية) ...	ميكا والتارى
١٥ الى ١٧ ـ جين اير (٣ أجزاء) ...	شارلوت برونتى
١٨ ـ فاتنـات الرجال	مارجورى كورجين
١٩ ـ رجال ونساء	مكسيم جوركى
٢٠ ـ الثـأر للوطن	جون شتاينبك
٢١ ـ فرنسا الجريحة على ضفاف النيل	ادوين جون ديفز
٢٢ ـ الابن الضـال (أسرة روكفيار)	هنرى بوردو
٢٣ ـ أسرار الجاسوسية	برنارد نيومان
٢٤ الى ٢٦ ـ بيلا دونا (سـائحة فى الأقصر) ٣ أجزاء	روبرت هتشنز
٢٧ ـ بوشكين (الشاعر العاشق) ...	ليديا لامبير
٢٨ الى ٣٢ ـ اعترافات جان جاك روسو (٥ أجزاء)	
٣٣ ـ قصص من الصين	لطائفة من المؤلفين
٣٤ ـ ليـالى بلزاك (ألف ليلة وليلة الفرنسـية)	أونوريه دى بلزاك

الكتاب	المؤلف
٣٥ الى ٣٧ ـ الالياذة (٣ أجزاء) ...	هوميروس
٣٨ ـ قصص من روما	البرتو مورافيا
٣٩ ، ٤٠ ـ المسبحة (جزءان)	فلورنس باركلي
٤١ ـ سفينة الملذات	موريس ديكوبرا
٤٢ ـ دم . . وخمر !	تولستوى
٤٣ ـ تحت ظلال الليلا ! (قصة تركية طويلة)	مبرورة سامى
٤٤ ـ أرواح هائمة !	سومرست موم
٤٥ الى ٤٧ ـ القلعة (٣ أجزاء) ...	دكتور ا.ج. كرونين
٤٨ ـ هل تحبين ((برامس))	فرانسواز ساجان
٤٩ الى ٥١ ـ مرتفعات ويذرنج (٣ أجزاء)	اميلى برونتى
٥٢ ، ٥٣ ـ مدموازيل جوفر (جزءان)	مرسيل بريفو
٥٤ ـ العذراء المفتونة	هنرى باتاى
٥٥ ، ٥٦ ـ مياه الربيع (جزءان) ...	ايفان تورجنيف
٥٧ ـ ضحكة فى الظلام	فلاديمير نابوكوف
٥٨ ـ ماريا ايفانوفنا	الكسندر بوشكين
٥٩ ـ لوكريشيا بورجيا	جوان هاسليب
٦٠ ـ كلهم أبنائى ، ومن فوق الجسر ...	آرثر ميللر
٦١ ، ٦٢ ـ نيتوتشكا (جزءان)	دستويفسكى
٦٣ ـ السحب الرائعة	فرانسواز ساجان
٦٤ ، ٦٥ ـ الآلهة عطشى (جزءان) ...	أناتول فرانس
٦٦ ـ قصص من تولستوى	تولستوى
٦٧ ـ مارى ستيوارت	فريدريك شيللر
٦٨ ـ ألف ليلة وليلة الهندية	لطائفة من المؤلفين
٦٩ ـ فاتنة الكونغو	شارل ميرسيه
٧٠ ـ قاتل بلا أجر	أوجين يونسكو
٧١ ـ قصص من ((ايبانيز))	بلاسكو ايبانيز
٧٢ و ٧٣ ـ الطريق الى بئر سبع (جزءان)	ايثيل مانين
٧٤ ـ أنا كارنينا	تولستوى
٧٥ ـ حب .. أم شفقة ؟	ستيفان زفايج
خارج السلسلة : دكتور جيفاجو (جزءان)	باسترناك

محتويات الكتاب

١ ــ قضية ضمير :

كتابى
تصدر عن الشعب
مؤسسة صحفية عربية
أخصائيون فى المطبوعات العاجلة
عضو اتحاد الصناعات
الإدارة : ٩٢ شارع قصر العينى بالقاهرة - ت ٣١٨١٠ • مكتبة دار الشعب - ت ٢٩٩٩١
التوزيع : مكتبة دار الشعب
المطابع : قصر العينى - ت ٣١٨١٠ - ٣١٨١٨ - ٣١٨١٩ دير النحاس - تليفون ٨٤٤٨١٠
رئيس مجلس الإدارة السيد ابراهيم


بعد أعوام من التحضير والاستعداد الطويل :
كتابي ومطبوعاته
يقدمان لك في الشهور القادمة - بالتناوب - هذه الباقة من السلاسل الجديدة والأعداد الخاصة :
مكتبة الشباب
وتتفرع عنها هذه السلاسل :
١ - التراث العالمي للشباب
٢ - التراث العربي للشباب
٣ - قصص حياة الخالدين
٤ - لكل سؤال جواب
مكتبة
أدب السينما
قصص أشهر الأفلام العالمية القديمة والحديثة مزينة بالصور
ألف قصة وقصة من آداب العالم
مجمع شامل لأعظم ألف قصة قصيرة من آداب جميع البلاد في جميع العصور..
مكتبة
القصص الشعبي
أساطير فولكلورية من شتى بلاد العالم
مكتبة
القصص العلمي
ترتاد بك عالم الغد، كما تتأهب له البشرية..
مكتبة
جريمة لا تفيد
لأشهر كتاب الأدب البوليسي الراقي
مكتبة
الحياة الخاصة
لعباقرة الإنسانية
مكتبة
القصص الواقعي
اعترافات يرويها أصحابها وتجارب يرويها أكبر علماء النفس
مكتبة
الرسائل والاعترافات
لأشهر المفكرين والعظماء
دائرة معارف
المرأة
كل ما يهم المرأة أن تعرفه عن نفسها
وكل ما يهمك أن تعرفه عن نساء العالم..
منذ فجر التاريخ .. حتى اليوم